آخر ساعات الهوان

بعيدا عن المآذن العالية للمساجد فى مدينة القاهرة التى لم تطفىء أنوار زينتها إثر سهر الليل فى هذه الليلة من شهر رمضان المبارك، تجمعت ذرات ضئيلة من الندي لتكون قطرة فوق صخرة تبعثرت إلي جوارها رمال وطأتها قدم جندي الحراسة الذي جاست عيناه يستشف كنه الأرجاء الممتدة أمامه فى ضوء القمر الذاهب، ولم يكن هناك غير الخلاء والنجوم اللامعة فى السماء وزميله الذي يقف عند الباب الحديدى الضخم القابع عند جوف الأرض الذى يحمل اسم المركز رقم (١٠) مقر قيادة القوات المسلحة المصرية.

فى ظل السكون الناشر أجنحته فوق الفضاء تلفت الجندى حوله فى يقظة وداس الحصى عائدا إلى الباب الحديدى، وخلف الباب امتد ممر طويل مضىء فى نهايته سلم ينزل إلى جوف الأرض ويفضى إلى طرقة ضيقة تنحرف يمنه ويسره وفى نهايتها باب حديدى بعده ينفسخ المكان كما فى القصور المسحورة فى أساطير ألف ليلة وليلة ويمتلىء بدنيا من قاعات وغرف مراكز اتصالات وصالات خرائط مليئة بالبشر تتحرك أقدامهم وأيديهم وشفاهم.

عند باب ضئيل لحجرة صغيرة علقت عليه لافتة تحمل «وزير الحربية والقائد العام» راح جنديا الحراسة يتناوبان الرواح والغدو، وفى داخل الحجرة كان الفريق أحمد اسماعيل على يستلقى على السرير الصغير وذرات عير مرئية من الغبار تسبح فى الهواء وتتلاحم مع أفكار تتراءى لعينيه لحظة وبعثرتها ذكرى الجبهة ومرحلة الصمود وحرب الاستنزاف

وصور الرفاق وتعلية السواتر وإقامة التجهيزات وتدريب القوات و . . . . . ، أحس بغصة فى حلقة، وأزاح بعيدا بالسواد الذى اندس فى خياله، وتنهد قليلا وهو يتقلب فوق الفراش ومضى يستجدى النعاس فى ليلته البيضاء غير أن مئات من الأشياء فرضت نفسها عليه واقتحمت ذاكرته صور عديدة لأشخاص وأحداث تبرق فى ومضة خاطفة وتروح تخلف وراءها لوعة فى القلب ويقينا آسرا فى الوجدان.

لاح خاطر رياض وانبعث رؤياه باسطة روح الأمل، واخترقت الذاكرة صورة السادات ووجهه الأسمر المعروق وهو يجلس إليه وقد اتخذ قراراه المصيرى ينظر إليه نظرة طويلة فيها الحياة والموت وأرواح مئات الألوف من الرجال، ومن بين شعاع خرج من مآقيه بدت كرامة ومستقبل وحياة أمة بأسرها.

تقلب على الجانب الآخر وأدار وجهه للحائط وسرت فى قلبه عاصفة تثور، ودارت فى خلايا رأسه نبضات تتهاوى فوق صفحة مياه القناة مع النار والدم والجنود والقادة والمعدات والأسلحة وأمة تقف على أعتاب الهول رهنا بجهد وقتال ودماء الرجال فى وهج الحرب عند انطلاقهم وسط الخطر بين أنياب الموت يدقون أبواب المستقبل المجهول.

* * *

كانت أصوات حديث السمر التى تدور بين مناحم وأبا وهما يتحدثان مع أصدقائهما تصل عبر النافذة إلى مسامع جولدا مائير، وفيما عدا المرات القليلة التى نبح فيها الكلب القابع فى الحديقة الواسعة لمنزل رئيسه وزراء إسرائيل لم يكن هناك من شىء آخر يعكر صفو ليلة عيد الغفران سوى القلق الذي اندس بين جوانحها بعد السهر الطويل مع الأبناء فى الليل الساكن الحار(٣).

نسجت الأنباء التى تواترت مع القلق والهموم ثوبا ثقيلا من الكدر جثم فوق صدرها وهى تقلب فى ذهنها المكدود أحداث الأيام الأخيرة وماجرى فيها فى النمسا، وتوقعات الليالى المقبلة وماقد يستجد فيها إذا نشب القتال بين إسرائيل والعرب (٣).

استنامت حواس جولدا مائير لخدر النعاس ينشر غلالة رقيقة تحجب الرؤى والأفكار عندما باغتها رنين جرس الهاتف فى الرابعة من صباح يوم السادس من أكتوبر وواصل رنينه فى إصرار وعناد (٣).

رفعت سماعة الهاتف إلى أذنها وأجابت على الهاتف وتأهبت فى تحفز وأذنها تستقبل موجات صوت مألوف للسكرتير العسكرى يتناهى إليها سريعا ملهوفا يسوق اعتذاره وأسفه عن إقلاقها فى هذا الوقت المبكر من الصباح قبل أن يفضى إليها العميد ليور بالتأكيد القوى الذى حمله البرق من مصدر مهيمن وموثوق به على أن مصر وسوريا سوف تقومان بشن الهجوم على اسرائيل فى وقت واحد قبل غروب شمس اليوم فى الساعة السادسة. (٣)

هزت جـولدا مائيـر رأسها كـمن تفـيق من أحلام الـنوم ونظـرت إلى سماعة الهاتف وقالت:

ـ ليور، اسمع إذن لم يعد هناك مجال للشك (٣).

نظرت إلى السقف برهة وأضافت:

ـ ليور، لم يـعد هناك وقت يمكـن أن نضيعه، اطلـب من ديان ودادو وآلون وجاليلى أن يكونوا في مكتبى قبل السابعة صباحا (٣).

ـ ليور، اسـمع، يجب أن تتأكـد من وصول الرسالة الـى ديان فورا، اذهب الآن وسوف اتصل بك بعد قليل.

سرت فى الليل همسة وتجمع الضباب، وفى مركز قيادة القوات المسلحة المصرية كان الحوار يجذب الفريق سعدالدين الشاذلى رئيس أركان حرب القوات المصرية بعيدا عن النوم الذى يتراءى له كسراب، وقد وضع يديه تحت رأسه يمر عبر خياله الحلم يتجاوز تفاصيل عملية اقتحام قناة السويس وحصار وتدمير خط بارليف إلى الأمل، وأقدام جنود الحراسة تروح وتغدو أمام حجرته الملاصقة لغرفة العمليات جعلت اليقظة تلهب حواسه ولاتسمح له بالنوم العميق قبل ان تستقر فى ذهنه فكرة تصوير المعارك بعمل سينمائى كامل، واستمر فكره يواصل تفنيد مزاياها وتمحيص عيوبها قبل أن يطوح بها بعيدا فى حسرة على القيمة التاريخية لها (٤).

بدأ يغفو قليلا والوسن يطبق على أجفانه عندما استدرجته أفكاره إلى بيداء القلق التى قذفته إليها حركة الاحتجاج الصامت المريب للسوفييت عندما سحبوا خبراءاهم وعائلاتهم وسفنهم الثلاث التى كانت راسية فى ميناء بورسعيد قبل يوم (٤).

انتبهت حواسه تماما عندما قفز إلى ذهنه تساؤل محير عن القلق الذى يمكن أن يكون قد أصاب الرئيس السادات من جراء هذا الموقف، وامتد التساؤل الي جوف الجحيم عندما أصبح سؤالا عما يمكن أن يجرى لو أن أمرا قد صدر بإيقاف وإلغاء العملية الهجومية؟، وعندما وجد أن الأسئلة وبحث مشاكل القوات المسلحة لم تترك له مجالا للنوم آثر أن يلقى بها كلها وراء ظهره قائلا.

ـ نعم إنى أريد أن انام، إن لدينا عملا كبيرا ينتظرنا غدا،

ويجب أن تأخذ قسطا من الراحة. (٤)

❊ ❊ ❊

كان الظلام يلف بيت الجنرال دافيد اليعازر الواقع فى (راحبوت)، وقد استلقى رئيس الأركان العامة فى جيش الدفاع الإسرائيلى منهكا مرهقا بعد اليوم الحافل باللقاءات والمؤتمرات مع قادة الأسلحة المختلفة فى جيش الدفاع الاسرائيلى.

تراقصت الهواجس فى رأسه وزحف القلق إلى خلايا مخه الضائعة بين اليقظة والمنام وأزعجه أن تكشف الأيام عن صورته كقائد متسرع مرتعش الأعصاب بعد أن أحس بتسرعه فى إصدار قرار برفع حالة استعداد الجيش الاسرائيلى في الساعة الحادية عشرة من صباح الخامس من أكتوبر.

شعر دافيد اليعازر أن صوتا يصدر فى الحجرة التى ينام فيها ولكنه لم يستطع ان يحدد بالضبط مصدر الصوت أو كنهه وأوشك ان يغيب فى بحار النوم مرة أخرى عندما سمع رنين جرس الهاتف الذي أيقظه تماما وأبعد النوم عن جفنيه.

استمع اليعازر إلى صوت محدثه الذى يتسارع فى لهفة يرسل إلى أذنيه فى اضطراب نبأ التأكيد القوى الذى أصدره مصدر موثوق به ويقلب تقديرات المخابرات رأسا على عقب.

واكتفى دافيد اليعازر بأن طلب من محدثه ـ الجنرال الياهو زعيرا رئيس المخابرات ـ مقابلته فى مكتبه بوزارة الدفاع فى الخامسة صباحا.(٥)

وضع اليعـازر سماعة الهاتف ونـهض من سريره وراح يقـطع الحجرة جيئة وذهابا ثم لم يلبث أن استقر رأيـه على الاتصال بسكرتيره العسكرى يطلـب منه استـدعاء أعضاء هـيئة الاركان العـامة إلى مكـتبه فى الـساعة الخامسة أيضا.

شعر الـيعازر أن استـدعاء رؤساء الأفرع وقادة الأسـلحة والمنـاطق فى الساعـة الخامسة سوف يكـون شيئا عظـيما إذا أمكن أن يكـون كل واحد مستعدا، ولكنه قرر أن الشىء الأعظـم أن يتصل بنفسه بالجنرال بانى بيليد قائد سلاح الجو ليصدر إليه أمرا إنـذاريا بأن يتأهب سلاح الجو للانطلاق إلى أهدافه عند الظهر.(٥)

لوهلة قصـيرة شعر اليعازر بالراحـة من هواجسه وتباعدت المسـافة بينه وبين القلق على الجنرال المتسرع ليحل قلق على معارك الجنرال فى جبهات القتال.

* * *

تساقطت الأمطار بغزارة على الطريق الشمالى الممتد من الشرق إلى الغرب عبر هضبة الجولان، وفى المنطقة الواقعة إلى الجنوب من طريق الماساوا وحتى الوسط عند طريق دمشق القديم الذي يربط بين مدينتى حيفا ودمشق كانت كثافة الأمطار تقل حتى الجرف الشاهق عند جسر بنات يعقوب فوق نهر الاردن.

فى المسافة بين هضبة الجولان ودمشق كانت الأمطار لاتزال تنهمر فوق الخطوط الدفاعية الثلاثة التي تتقاطع مع طريق دمشق، وقد قبع الجنود والقادة فى الخط الأول المقام على شكل مواقع خرسانية للمدافع والدبابات ومخابىء وملاجىء تحت الأرض على مسافة ألف متر إلى الشرق من خط وقف إطلاق النار.

على سلسلة سعسع الجبلية المكونة من سلسلة غير مستوية من التلال والنتوءات الصخرية والتراكمات البركانية كان خط الدفاع السورى الثانى الذي كان يجرى إخلاؤه من الأفراد فى هذا الوقت من الساعات الأولى من صباح السادس من أكتوبر، وكان اللواء يوسف شكور رئيس هيئة أركان الجيش السورى يتابع من مقر القيادة العامة فى قطفة حشد الفرق السورية للقيام بالهجوم ويبلغها بدوره إلى اللواء مصطفى طلاس وزير الدفاع.

وضع الجنرال موشى ديـان سماعة الهاتف الأحمر الذي أزعـجه برنينه المتواصل طوال الليـل ونهض ديان من سريره بعد أن تلفى بـرقية السفارة الاسرائـيلية فى واشنـطن ونقلها إلـيه سكرتيره الـعسكرى(٦)، وقبل أن يرتدى ثيابـه بوغت برنين مزعج للهاتـف فقد كان اسرائيل ليور الـسكرتير العسـكرى لرئيـسة الوزراء يطـلبه بنـاء على أوامرهـا ليكون هـو ورئيس الأركان دافيد اليعازر وايجال آلون واسرائيل جاليلى في مكتبها قبل الساعة الساعة من صباح اليوم.(٦).

استمع العميد (اشعيا هورفيف) الذى يشغل منصب السكرتير العسكرى لموشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى إلى ديان بإنصات بالغ وهو يطلب إليه أن يسارع بتـبليغ كبار رجـال وزارة الدفاع وأن يتواعد مـع رئيس الأركان دافيد اليعازر علـي اللقاء في مكتب وزير الدفاع فى السـاعة السادسة قبل لقاء وزير الدفاع برئيسة الوزراء فى مكتبها بساعة كاملة عندما فرغ ديان من حديثه ارتدي ثيابـه على عجل وهرع إلى مبنى الوزارة فى الـفجر الساكن بينما أشعة النهار تخترق سجف الليـل وتلملم ستارته الشفافة وتدس النور من بين الخيوط الممتدة لنهار طويل.(٦)

عندما وصل ديان إلى مبنى وزارة الدفاع مع تباشير النهار كان المبنى قد تحول إلى خـلية يدب فيـها نشاط غيـر عادى يسابـق الزمن وأمتلأ المـبنى بالضـجيج والحركة، وعلـى حين كان مكتب رئيس الأركان يستقـبل فى جوفه أعضـاء هيئة رئاسة الأركـان العامة الإسرائيـلية فقد انتـحى الجنرال اليعازر جانبا بالجنرال إلياهو زعـيرا الذي كان يشرح له الأنباء الجديدة التى

وصلت لرئاسته قبل الرابعة بقليل.

كان توافد قادة الأفرع والمناطق والأسلحة مثيرا ويضفى على المكان جو لقلق وتوتر الأعصاب وراح كل واحد فيهم يراجع تقديراته للموقف اقتراحاته قبل أن يبدأ الاجتماع الذي ما إن ينتهي حتى يسرع كل واحد فيهم إلى مقر قيادته لتنفيذ المهام التى سوف يكلفون بها.(٦)

تثاءبت القاهرة وهى تزيح غطاء الليل وتستقبل اليوم الجديد ككل أيام الوقت الأخير فى حزن قاهرة المعز وتحركت عربات النقل العام فى الشوارع تتجه إلى بدايات الخطوط فى الشوارع الخالية، وسارت عربات نقل الخضر بطيئة تدلف إلى بطن العاصمة،وباعة الصحف اليومية يلقون في تكاسل بمجموعات الصحف اليومية ويسوون فى بطء أرضياتهم.

فى المحطة الرئيسية لخطوط السكك الحديدية تحرك نفر قليل من الركاب بعضهم يقاوم التثاؤب والآخر يواصل السهر حتى الصباح وقد امتدت الهالات السوداء حول أجفانه فأخذ بعضهم يمسح وجهه وهو يطالع الصحف التى صدرت وحملت الأهرام بين عناوينها خبرا يقول:

«التوتر يشمل كل جبهات القتال ويشتعل فى جبهة قناة السويس».

وتصدر نبأ مصرع مدير البوليس الاسرائيلى فى غزة بقنبلة فدائى صدر أخبار اليوم.

فى صحيفة الجمهورية كانت العناوين كالتالى:

«قرار زائيرى بقطع العلاقات مع إسرائيل ينزل كالصاعقة على الحكومة الإسرائيلية التى لم تفق حتى الآن من ضربة فيينا». (٩)

دارت تعليقات بين بعض الركاب حملت السخرية من العناوين المثيرة التي تسلى الصيام لكسر الجمود وحالة خيبة الأمل التى لم تفلح فوازير رمضان فى حلها.

فى مركز العمليات الرئيسى رقم (١٠) وفى غرفة العمليات الرئيسية

للقوات المسلحة المصرية كانت الأضواء تتألق ومجموعة من قيادات أفرع القوات المسلحة المصرية وراء خرائطها في تربص، وأمامها وسائل الاتصال الساكنة وفى مواجهة منصة القيادة التى تتصدر القاعة مجموعة الخرائط الرئيسية التى توضح الموقف العام مرسومة على مسطحات من البلاستيك الشفاف المتين بعرض القاعة كلها وتمثل الموقف فى البر والبحر والجو والوضع على الجبهة السورية.

دلف الفريق أحمد اسماعيل على وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة المصرية إلى القاعة ورنين أجراس خافت لاينقطع وتختلط أصوات أجهزة الاتصالات الهامسة بحركة الأقدام المتسللة فى هدوء، وشحنات من العواطف الجياشة تتدافع ولمسات دقيقة من الأقلام الشمعية الملونة تنقل البيانات والمعلومات التى تتوالى على الخرائط الرئيسية.

ساد الهدوء المشحون بأحاسيس غامضة لحظة قصيرة ثم بدأت أصوات ضيئلة تتردد بين جنبات القاعة بعد أن أخذ القادة أماكنهم إثر تبادل التحية بينهم وبين القائد العام.

نظرات سريعة ألقاها أحمد اسماعيل على الخرائط لاستيضاح الموقف المرصود على شكل رموز وأسماء واشارات فوق الخرائط، وامتدت يده تقرأ الحروف فوق أوراق قليلة تضم تقارير اللحظات الأخيرة ولمسات آخر رتوش نداء القدر.

أتمت القوات فى منتصف الليل تحركاتها واتخذت أوضاعها واحتلت الصواريخ مواقعها، وعادت الدوريات التى تسللت فى بداية الليل لتلقى

نظرة استكشاف على مواقع النقط الحصينة فى خط بارليف، وانتهت جماعات القوات الخاصة من إحباط تحضيرات الإسرائيليين لإشعال سطح القناة بالوقود الملتهب بعد أن قصت الخراطيم المدفونة تحت المياه وصبت فوقها قوالب من الأسمنت وأعطبت صنابير الوقود للخزانات الرئيسية(٧) التى كانت تحوى أطنانا من وقود يندفع الى قناة السويس ليحيلها نارا تمور.

امتلأت قاعة الاجتماعات برائحة عطنة من دخان لفافات التبغ لم تقلح أجهزة التكييف فى تبديدها، وبدت فناجين القهوة المتناثرة وأكواب المياه فارغة، وامتدت الخرائط المنشورة والأوراق المبعثرة فوق المائدة الكبيرة فى الاجتماع الذى ضم الجنرال موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى، والجنرال دافيد اليعازر رئيس الأركان والجنرال الياهو زعيرا رئيس المخابرات والجنرال يسرائيل تال نائب رئيس الأركان ومجموعة المساعدين الذين اجتمعوا للنظر فى التدابير اللازمة لمجابهة الموقف المتفجر بعد أن انتهى اجتماع رئيس الأركان مع قادة الأسلحة والأفرع والمناطق منذ قليل.

أسهب الجنرال دافيد إليعازر رئيس الأركان فى وصف تعزيز الجبهات واستدعاء قوات الاحتياطى كلها وعرض على وزير الدفاع الاسرائيلى الاقتراحين االلذين انتهت إليهما تقديرات القادة العسكريين فى اجتماعهم مع رئيس الأركان قبل قليل.

كان الاقتراح الأول ينصب على قيام سلاح الجو بشن هجوم وقائى فى الساعة الواحده بعد الظهر لإجهاض الهجوم المصرى السورى المشترك على الجبهتين، ولن يكون تنفيذ الاقتراح صعبا فقوات سلاح الجو متأهبة منذ إعلان حالة التأهب القصوى والاستعداد لتوجيه الضربة الوقائية التى اتفق عليها مع الجنرال بليد قائد سلاح الجو.(٦)

كان الاقتراح الثانى يتمثل فى إعلان التعبئة العامة الشاملة على الفور(٦)

تفحص ديان وجوه المجتمعين ليرى رد فعل الكلمات التى ألقاها دادو

ثم تحدث ديـان عن ضرورة الحصـول على موافقـة مجلس الـوزراء على الهجوم الوقائى الذى يقترحه الـيعازر، ويرى ديان أن الأولوية التى يجب الأخذ بها هـى إجلاء النساء والأطفال من المـستوطنات الواقعة فـى هضبة الجولان، وبالنسبة للاقـتراح الخاص بالتعبئة الشاملة فإن الـقوات النظامية والمساندة الموجـودة على الجبهتين يمكنـها الصمود ويكفى فـى هذه المرحلة إجراء تعبئة هادئة. (٦)

أضاف ديان

ـ إلا أنه ينـبغى توجـيه تحذير شديـد إلى مصر وسوريـا بكافة الـسبل لدفعهم على الـتراجع عن القيام بالعدوان واحباط مخطـطاتهم، وعلى أية حال تكـون قد حلنا دون اقتـناع بأن الحرب كان يمكـن تفاديها، وبأنـنا لم نفعل المـستحيل لتـفاديها ولم نكـن نحن الذين تسـببنا فى وقوعـها وحتى لاتظهر إسرائيل أمام العالم بمظهر الدولة التى بادرت بالاعتداء وتسببت فى قيام الحرب مما سوف يحرمها من عون الدول الصديقة ومساندتها (٦)

انتفض الجنرال دافيد اليعازر وهو يرد فى انفعال واضح.

ـ أبدا، لايمكننى أن أسمح للمصريين أو للسوريين أن يجعلونى أرقص على ايقـاعهم، واستشارات قادة سلاح الجـو كلهم توافقنـى على إرسال الطيران فى هجوم وقائى عند الظهر.

* * *

كان هدف السوريين هو استعادة هضبة الجولان بأكملها فى زمن لايزيد عن ثلاثين ساعة قبل أن يتمكن الإسرائيليون من تعبئة احتياطيهم بوقت كاف وكانت الخطة تقضى بتوجيه ضربة جوية فى ساعة الصفر والاستيلاء على جسر بنات يعقوب بقوات انتحارية من الصاعقة المحمولة جوا، واختراق الدفاعات الاسرائيلية الأمامية فى عدة نقاط على جبهة عريضة بثلاث فرق مشاه لتتمكن الفرقتان المدرعتان المنتظرتان من الاندفاع من هذه الثغرات إلى نهر الأردن مع عدم إضاعة الوقت فى الاستيلاء على أى مواقع دفاعية منفردة(١)

كان الثقل الرئيسى للهجوم السورى سيتم من خلال فتحة فى منطقة التلال والارأضى غير المستوية يطلق عليها اسم ثغرة رافد إلى طريق التابلاين وتتفرع الألوية والكتائب على هذا الطريق غربا إلى نهر الأردن.

كانت قيادات الفرق السورية التى احتشدت للقيام بالهجوم تعيد تقديراتها وتأكيد المهمة فبينما انهمك العميد عمر ابراش قائد الفرقة السابعة مشاة فى مراجعة مهمة التقدم إلى الشمال مباشرة من القنيطرة والتوغل حتى طريق واسط، فإن العميد على إسلام قائد الفرقة الخامسة مشاة كان يراجع مع هيئة أركان الحرب مهمة التقدم خلال ثغرة كودية للاستيلاء على خسنية ونافاك والانضمام إلى قوات الصاعقة عند جسر (بينوت ياكوف) أو جسر بنات يعقوب (١).

فى نفس هذا الوقت الذى كان يجري فيه مراجعة مهمة الاستيلاء علي نافاك كان البريجادير رافائيل ايتان القائد الميدانى لهضبة الجولان مع

الجنرال هوفى القائد العام للقيادة الشمالية يعقدان اجتماعا مع الكولونيل افيجدور قائد اللواء السابع المدرع الذي يتمركز حول نافاك، وكان الاجتماع منعقدا فى مقر القيادة الشمالية فى نافاك(١).

كان الهاجس الذين تدور حوله منافشات القادة الإسرائيليين يكمن فى تقدير الجنرال هوفى فى نقطة المراقبة فوق جبل الشيخ فقد رأى أن هذا الموقع يحتاج إلى وضع مفرزة من لواء الجولانى في الاستعداد لاستعادة الموقع فى أى وقت لقيمته الهائلة إذا ما سقط فى أيدى السوريين، واستقر الأمر فى النهاية على تعزيز الدفاعات عبر طريق دمشق على أن يتولى اللواء السابع مسئولية الجزء الشمالى من الهضبة وأن يتولى البريجادير ايتان أمر أجلاء النساء والأطفال من المستوطنات قبل الظهر.(١)

* * *

احتار الجندي شعبان عبد العظيم في الفصيلة الثانية من العقاب الذي أمر به النقيب بيومي لأفراد الفصيلة بعد أن أنتهوا من إزالة الساتر الترابي الموجود أمامهم قبالة شاطئ القناه وتركوه علي شكل حائط صغير من الرمال، وعندما بدأت تباشير النهار نشب شجار بين شعبان وبين زميله الجندي عبد الحفيظ السيد عبد المنعم بسبب أبيات من الشعر قالها الأول وأعدها الثانى.

مما زاد الأمر حيرة أن قائد الكتيبة الذي كان يمر في ذلك الوقت جعل العقاب مصحوباً بعدم ارتداء الخوذة أو ملابس الميدان، فلم يكن معروفا عن الرائد توحيد تساهله أو تسامحه ، وتكشف الأمر عن مزيد من الحيرة عندما همس الرائد توحيد بكلمات في أذن الرقيب اسماعيل بعدها بدقائق قليلة اقترب منه الرقيب اسماعيل وعنفه بشدة موجها إليه الاتهام قائلا:

-أنت السبب يا أديب الأرض إلى يوم العرض.

لم ينطق شعبان ببنت شفة فوجه الرقيب إسماعيل حديثه إلي باقي أفراد الفصيلة قائلا في صوت خفيض:

- الموضوع لا يستحق الجزاء، حاولوا الراحة من غير أن يراكم النقيب بيومي.

ثم اقترب من شعبان وقرص أذنه وهمس:

ـ خذ بعضك مع زملائك وناموا فى الخندق من غير حس ولاخبر، أنا أنا عارف أنكم متعبون من السهر طول الليل فى إزالة ساتر الرمال وكلكم فى حاجة لراحة، لكن إياك أن تتشاجر، فأنت ابن حلال ولا

تستحق العقاب.

أسعدت الكلمات شعبان ومكث لحظة لايصدق وفكر فى الأمر قليلا، فهذه الطيبة الجديدة غير مألوفة العهد بالرقيب اسماعيل، ولما لم يهتد لإجابة فقد أسعد نفسه بأن المناورة القائمة وتدريباتها سوف تكتمل النهاية لها بنهاية اليوم.

تنهد فى حرقة ولوعة وأشاح بوجهه عن زميله عبد الحفيظ الذى لم يتركه فى حاله وداعبه معتذرا، لكن شعبان جذب بطانيته الصوف وسحبها فوق جسده المستلقى فوق الرمال الناعمة وأراح بدنه، وأغمض عينيه فى هدوء، وسرعان ماراح فى سبات عميق يغط بصوت عال لايأبه للرقيب اسماعيل الذي كان واقفا مع النقيب بيومى والرائد توحيد فوق رأسه فى انتظار قائد الفرقة الثانية مشاة ليعاين بنفسه إتمام فتح الثغرات فى الساتر الترابى على الضفة الغربية لقناة السويس فى مواجهة قواته.

على طول قناة السويس الممتدة من بورسعيد شمالا إلى السويس جنوبا كان قادة الفرق فى الجيوش الميدانية بالقوات المسلحة المصرية قد بدأوا فى إبلاغ قادة الألوية فى فرقهم بإلغاء المناورة التى تجرى تحت اسم «تحرير ٢٣» وبداية تنفيذ عملية اقتحام قناة السويس وتحطيم خط بارليف.

كان اللواء سعد مأمون يتولى قيادة الجيش الثانى الميدانى وعندما أنهى العميد عبدرب النبى حافظ قائد الفرقة السادسة عشرة مشاه إلى قادة الألوية بنبأ صدور أمر الهجوم فقد أصر على أن ينتزع منهم قسما بعدم السماح لأية مدرعة فى العمق القريب بعرقلة تقدم القوات، بينما كان

العميد حسن أبو سعدة قائد الفرقة الثانية مشاة يؤكد على ضمان تنظيم التعاون، وفى الوقت ذاته كان العميد فؤاد عزيز غالى يصر على مراجعة تحرير مدينة القنطرة، وكان العميد إبراهيم العرابى قائد الفرقة الواحدة والعشرين المخصصة كنسق ثان يراجع خطته.

إلى الجنوب فى مركز قيادة الجش الثالث الميدانى كان مركز القيادة يزدحم بالقادة المجتمعين مع اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث فى اجتماع وضع لمسات أخيرة، بينما كان العميد يوسف عفيفى قائد الفرقة التاسعة عشرة مشاه يقسم أن وحداته سوف تكون أول من يرفع العلم المصرى فوق سيناء، وأردف قائلا

ـ هأنذا أمامكم أعد ولسوف أكون وفيا بالوعد.

وكان العميد أحمد بدوى قائد الفرقة السابعة مشاة يربت على أكتاف قادة الألوية في ابتسام وهو يعيد:

ـ أن يبدأ اتساع عملية التلقين وتلقى الأوامر النهائية عن واجبات الوحدات والأوامر الخاصة بالقتال وأن يصدر الأمر بتناول طعام الغداء فى الساعة الثانية عشرة ظهرا من قائد الوحدة حتي الجندي.

وفى النسق الثانى كان كل من العميد محمدعبد العزيز قابيل قائد الفرقة الرابعة المدرعة والعميد محمد أبو الفتح محرم قائد الفرقة السادسة مشاة ميكانيكى من قوات الجيش الثالث الميدانى، وكان العميد أحمد عبود الزمر قائد الفرقة الثالثة والعشرين التى تعمل احتياطى الجيش الثانى الميدانى ـ كانوا جميعا فى انشغال بتأكيد المهام وتدقيق تنظيم التعاون وإبلاغ قادة

الألوية التابعة لهم ومتابعة سير الخطة. (٧)

❋ ❋ ❋

فى الممر المفضى إلى قاعة الاجتماعات بمكتب رئيسة وزراء اسرائيل كانت جولدا مائير تتحدث إلى حاييم بارليف الذى كان ينصت باهتمام بالغ، وبينما كانت تشير إليه بيديها قالت:

ـ سألت وزير الدفاع ورئيس الأركان ورئيس المخابرات عما اذا كانت معلومة حزم أمتعة وترحيل عائلات المستشارين الروس على عجل تعتبر هامة فوجدت أنها لم تغير من تقديراتهم للموقف، وتلقيت تأكيدا بأن لدينا إنذارا كافيا لأى متاعب كما أن تعزيزات قد تم ارسالها إلى الجبهات لصد أية عمليات عند اللزوم، وقد تم اتخاذ اللازم فوضع الجيش فى أقصى حالات التأهب وخاصة الطيران والمدرعات. (٣)

انضم إليهما الوزير جاليلى الذى قال:

ـ انا نفسى أقترحت أن يقوم وزير الدفاع باستدعاء الاحتياطى وإعلان التعبئة العامة فى اجتماعنا ظهر أمس على الرغم من أن مثل هذا العمل يحتاج إلى قرار الحكومة كلها.

قالت مائير:

ـ إنهم ـ دادو وديان وحاييم بارلييف ـ كانوا موجودين وهم فوق ذلك ليسوا جنودا عاديين، إنهم جميعا من الجنرالات ذوي الخبرة العالية ولكل منهم سجل عسكرى حافل وكلهم يقطعون بأن الحرب احتمال بعيد، ولم

يقتصر الأمر على ذلك فحسب فمعروف عن مخابراتنا أنها من بين أحسن المخابرات فى العالم، وفوق ذلك فإن المصادر الأجنبية التى كنا على اتصال مستمر معها قد وافقت بصورة مطلقة على تقديرات خبرائنا. (٣)

التقطت أنفاسها وأضافت:

أما اليوم فإننى أعلم ما الذي ينبغى على أن افعله(٣)

* * *

قبل أن يبدأ الاجتماع العاجل الذي دعت إليه رئيسة وزراء اسرائيل فى الساعة الثامنة بتوقيت اسرائيل حمل ديان وزير الدفاع الاسرائيلى حقيبة أوراق وضعها فوق المنضدة وهو يبتسم جذلا، وحياه كل من آلون وجاليلى فى مرح صاخب وهو يخرج من الحقيبة تقارير الاستطلاع.

فى انتظار حضور رئيسة وزراء اسرائيل ناقش ديان مع رئيس الأركان ومجموعة المساعدين التدابير التى يجب أن يتفقوا علي اتخاذها فإن أربع مشاكل أساسية كانت تواجههم وهي التي ذكرها ديان بقوله:

ـ استدعائى الاحتياطى وتعزيز الجبهات، وارسال طيراننا فى هجوم وقائى، وإجلاء النساء والأطفال عن المستعمرات الحدودية فى الجولان، وتوجيه تحذير إلى مصر وسوريا غايته أن ندفع العرب إلى التراجع عن الاعتداء وأن نظهر للولايات المتحدة الأمريكية على مَنْ تقع مسئولية الحرب بحيث نضمن تأييد واشنطن. (٦)

والتفت ديان إلى دافيد اليعازر وقال له:

ـ أننى موافق على طلبك أن تستدعى فورا الجيش الاحتياطى الضرورى للدفاع عن الجبهتين فى النطاق الذي حددته أنت، بيد أننى أفضل أن

أبحث مع رئيسة الوزراد أمر الهجوم الوقائى.

* * *

تتابعت نبضات قلب الفريق أول أحمد اسماعيل على وزير الحربية المصرى وهو ينهمك فى مراجعة تقارير متابعة الخطة للمرة العاشرة من إتمام قوات المهندسين العسكريين لفتح الثغرات فى الساتر الترابى علي الضفة الغربية لقناة السويس وقيام نفس القوات بإغلاق مأخذى المياه لترعتى السويس والاسماعيلية لتيسير تدفق المدرعات عبر المخاضات والمعابر، وقال:

ـ كما لو كنا فى مشروع تدريبى.

وكأنه يرى بعينى رأسه الأعمال ويشد على أيديهم، ومرت يده فوق جبهته عندما قرأت عيونه تمام إبلاغ كل قادة الألوية فى الوحدات بوجه عام بإلغاء المناورة السنوية وإبلاغهم بمهمة اقتحام قناة السويس.

استدار أحمد اسماعيل بوجهه إلى الفريق الشاذلى الذى كان مشغولا بمتابعة الاتصال مع مدير إدارة الشئون المعنوية يتأكد من تدبير الخمسين مكبر صوت التى طلبها على وجه السرعة ليتسنى تسليم عشرين منها الى الجيش الثالث وتسليم ثلاثين مكبر صوت إلى الجيش الثانى.(٤)

كان الفريق سعدالدين الشاذلى رئيس إركان حرب القوات المسلحة المصرية باديا فى حالة تأمل عميق وهو يتحدث يتذكر فيض روحانية الأمس وعطره على وجدانه عندما دخل مكتب اللواء عبدالمنعم واصل قائد الجيش

الثالث الميدانى من مركز قيادته فوجده وقد انتهى من وضع كل اللمسات الأخيرة فى اطار استعدادات قواته يراجع كلمة قصيرة موجزة عامرة بالإيمان والحث على الاستشهاد أو النصر، كان ينوى القاءها على جنوده قبل بداية المعارك.

عندما سمع الشاذلى الكلمة المشجعة تدفق شيء ما لا يدريه وتسلل إلى روحه ولمعت فى ذهنه فكرة(٤) سرعان ما انتشر ضياؤها فبدا بشرا على وجهه ونطق لسانه بها:

ـ مكبرات صوت في كل الجيش تنادي لبعث الهمم في النفوس بنداء «الله أكبر» أقصر الخطب وأقواها (٤) ودعاء من الأعماق.

عندما استدار أحمد اسماعيل ناحية اللواء محمد عبدالغنى الجمسى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة ردد فى نفسه أن كل واحد مشغول تماما بما فى أعمافه وبواجبه، ففى هذه اللحظة كان اللواء الجمسى منصرفا بكل حواسه فى اهتمام بالغ يتابع فى اصرار عنيد يدا ترتفع إلى أعلى وتهبط والقلم الذى تمسك به اليد يستقر فوق الخرائط ينقش فى ثبات وبهدوء بالغ:

«توقف هطول الأمطار الغزيرة فوق الجبهة السورية»

أشار إليها اللواء الجمسى فى همسة فرح خافتة شدت انتباه القادة المصريين بينما كان اللواء نوفل يقوم بتسجيلها، وفجأة، هجم الصمت وخيم ، وساد هدوء غريب مريب لم يفلح فى قطعه الصرير الهزيل

لأقلام الشمع فوق الخرائط الشفافة.

❋ ❋ ❋

قالت جولدا مائير:

كلنا يعلم الآن أن الحرب الوشيكة سوف تنشب فى السادسة من مساء اليوم، وقد تكون الحرب هى الوسيلة الوحيدة أمام السادات لخروج نظامه من مآزقه الداخلية والخارجية، فقد دأب على اطلاق تصريحاته العدائية وتهديداته المستمرة، وقام بعمل مماثل على الجبهة الجنوبية فى مايو الماضى كلف الخزانة الاسرائيلية مبلغ واحد وستين مليون ليرة.

آثر بارليف الصمت وعمد جاليلى إلى شغل نفسه بمراقبة الجنرال ديان الذى بدأ حديثه بعرض الأمر عليهم قائلا:

- فى مصادر المعلومات حقيقة مؤكدة، وهى أن الرئيس المصرى أنور السادات قد جر الرئيس الأسد إلى اتفاق للقيام بمغامرة عسكرية سوف تكون قبل غروب الشمس.

فى هذه اللحظة دخل الى قاعة الاجتماع إيجال آلون نائب رئيسة الوزراء الذى حضر بسيارته من مستوطنة «جينوسار» التى كان يقضى فيها أجازته، وبعد أن أخذ مقعدا سأل:

«ماهو موعد الهجوم؟»

قال ديان:

فى الساعة السادسة من مساء اليوم.

نظر آلون إلى المجتمعين فى دهشة وقال:

«السادسة مساء، أعتقد أن هذا التوقيت غير معقول فالمصريون بحاجة إلى ساعات من النهار ثم يحتمون بالظلام من السلاح الجوى، ربما لم يكن المقصود الساعة السادسة وإنما المقصود هو الساعة ١٦٠٠ أي الرابعة بعد الظهر وهو الأقرب إلى الاحتمال»(٥)

هز ديان رأسه وأكمل حديثه قائلا:

ـ فى الصور الجوية التى التقطتها طائرات الاستطلاع ومعلومات وشواهد نقط المراقبة على امتداد الجبهتين ليس فقط مايؤكد نية الهجوم بل إنه أيضا ينفى أية شبهة لتأخر الهجوم عن مساء اليوم، فآخر صور الاستطلاع توضح بجلاء أن القوات المصرية قد قامت بالانتشار متخذة أوضاع الهجوم، واحتلت بفصائل الدبابات على طول القناة وشغلت ساحات تجميع بمعدات كبيرة مع قوارب لعبور القناة ونفس الحال ينطبق على الجبهة الشمالية.

جمع ديان خرائطه وأوراقه وأشار إلى رئيس الأركان الذي حاول أن يسبغ جوا من الهدوء والثقة على حديثة وهو يقول:

ـ انتهيت في اجتماعى مع رؤساء الأفرع على أن تغيير القوات المصرية والسورية لتشكليهما صباح الجمعة يعنى أن الحرب سوف تقع مساء السبت وكنت قد أصدرت أوامرى التى جرى تنفيذها بإلغاء الأجازات وبقاء

جميع الضباط والجنود فى أماكنهم استعدادا للقتال، وفى الساعة الرابعة من صباح اليوم كنت قد أصدرت أمرى إلى الجنرال بليد بأن تتأهب قوات سلاح الجو فى قواعدها الجوية. (٦)

توقف قليلا وراح يبحث بين أوراقه عن شيء يحتاج اليه، ونشر أمامه خريطة وهو يشير إلى رئيسه الوزراء قائلا:

ـ إننا لن ننطلق من لاشيء فالطيران مستعد وتحت تصرف قائد الجبهة الشمالية أكثر من مائة وثمانين دبابة وأربعة واربعين بطارية مدفع وخمسة آلاف رجل محصنين فى مواقعهم، وعلى الجبهة الجنوبية تتمركز ثلاثمائة دبابة وثمان وأربعون بطارية مدفع وثمانية آلاف وخمسمائة رجل فى مواقعهم الحصينة، والقوات فى حالة تأهب قصوى، وخطط الطوارىء جاهزة ومعروفة فى حالتى الهجوم والدفاع وجرى تدريبهم عليها فى المناورات تدريبا جيدا، أما عن النيات المصرية علي الجبهة الجنوبية فهى معروفة ستبدأ بعمليات مدفعية مدروسة التأثير، يليها مد جسور فى عدة أماكن معروفة سوف تستغرق أزمنة سبق تأكيدها ودراسة التعامل معها، وسوف يقومون بعدد من عمليات الإنزال بطائرات الهليوكبتر لن تكون مؤثرة وسوف يجري إجهاضها. (٦)

قلب أوراقه مرة اخري وأردف قائلا:

ـ وفيما يتعلق بالجبهة الشمالية فإن من المفترض أن يبدأ السوريون أعمالهم بضرب مدفعى يليه هجوم المشاة وتقدم آليات مد الجسور لتأمين عبور الوحدات المدرعة للخنادق مع محاولة الاستيلاء على قمة جبل

الشيخ فى الساعات الأولي للهجوم.(٦)

توقف الجنرال دافيد اليعازر رئيس هيئة أركان جيش الدفاع الاسرائيلى عن السرد، وتطلع إلى وجوه الحاضرين ينظر تأثير كلماته، واستحثه جاليلى بهزة من رأسه فطفق يسترسل فى حديثه قائلا:

ـ تشكيل قوات جيش الدفاع المستعدة للمواجهة يعادل مانصت عليه عملية «برج الحمام» على الجبهة الجنوبية وتستطيع مجابهة الموقف فى البدايات الأولى، بينما القوات على الجبهة الشمالية تفوق مانص عليه المخطط وموزعة على نحو يسعها معه مع مؤازره الطيران أن تجمد الهجوم.

تدخل ديان فى الحديث قائلا:

هناك شيء هام فى الحشور السورية، فإنه وان كانت الحشود المصرية ذات مغزى خطير ومؤشر لايقبل الشك أو التهوين من حجمها فإنها لاترقى إلى مصاف الخطورة البالغة التى تشكلها الحشود السورية، فالمصريون لن يسعهم معالجة موقف الخسائر الضخمة التى سوف تلحق بقواتهم وقد يجبرهم هذا الموقف علي التراجع، أما السوريون فإن خطورة الحشود لاتكمن فقط فى قربهم من قلب اسرائيل إذا حاولوا الاستيلاء على قمة جبل الشيخ بل إن ماجري من نقل القاذفات السورية إلى المطارات الأمامية وتحريك المدفعية إلى الأمام وتقريب بطاريات صواريخهم من الحد الأمامى كل هذا الأمر لايعكس فقط رغبة السوريين فى دعم

العمل لثلاث فرق ميكانيكية وفرقتى مشاه بل يوضح بجلاء أن المستوطنات على الحدود سوف تكـون هدفا مؤكدا للأسلحة السـورية وهو أمر سوف يقومون بفعله بالتأكيد.

ألقى التفكير الـعميق فى رءوسهم السكون على القاعـة قبل أن يقطعه الجنرال دافيد اليعازر قائلا وهو يضغط الكلمات:

ـ واهتمـامي ينصب علـى تعبئة كل سـلاح الطيران وأربع مجـموعات عمليات، وإذا تم الاستدعاء فورا فسوف يـكون بإمكان القوات أن تتحرك وتعمل فى صبـاح اليوم التالى، وأن نبدأ بمواجهة الموقـف بضربة إجهاض وقائية يقـوم بها سلاح الجو، وأن تنفذ الـعملية عند الظـهر مادام قد بات واضحا أن الحرب لا مفر منها.(٣)

تأمل المجتمعين وهو يطوى أوراقه وقال:

ـ أريدكم أن تعـلموا أن سلاح طيراننـا يمكن أن يكون جاهـزا للضرب عند الظهر، لكن عليكم أن تضيئوا لى الضوء الأخضر الآن(٣).

* * *

* * *

كانت عقارب الساعة تشير إلى الدقيقة الثلاثين بعد التاسعة من صباح السبت العاشر من رمضان عام ألف وثلاثمائة وثلاثة وتسعين الموافق السادس من أكتوبر سنة ثلاث وسبعين بعد ألف وتسعمائة عام من ميلاد المسيح، ومنذ بزوغ أول ضوء لنهار اليوم كانت طائرات القوات الجوية المصرية تقلع من مطاراتها وقواعدها الجوية المنتشرة على أرض مصر للقيام بالتدريبات المقررة والدوريات الجوية المدرجة فى بيان التدريب طبقا للتوقيتات السابق تحديدها.

فى غالبية الأحوال كانت الطائرات تصل إلى القواعد الجوية التى سوف تقلع منها على ارتفاعات منخفضة جدا للبعد عن رقابة الاسرائيليين الرادارية وكان المهندسون والفنيون والطيارون فى حركة لاتهدأ، وقامت طائرات الهليوكبتر بتنفيذ مهامها فى المناورة التدريبية قبل أن ترابط فى مناطق التحميل.(٨)

كان اللواء طيار محمد حسنى مبارك قد جمع قادة القوات الجوية فى مكتبه (٥) وأمام المكتب وقف أحد ضباط فرع العمليات فى قيادة القوات الجوية ينتحى بزميله جانبا ويطلب رأيه فيما لو أثار اللواء مبارك موضوع انشغاله فى جمع المعلومات والرسومات الخاصة بوضع التصميم الخاص ببناء مطار فى قلب الجبل الذي أمر الفريق الشاذلى بوضع هذا الضابط ضمن مجموعة العمل المسئولة عن هذا المشروع وعندما نبهه زميله إلى أن الفريق الشاذلى كان قد أخطر اللواء مبارك بشأن هذا التكليف، قال ضابط العمليات:

- إننى أعلم ذلك لكن فى المرة السابقة التى شاهدنى فيها اللواء مبارك مشغولا بإعداد الرسوم نهرنى قائلا (أليس عندك ماهو أهم) وعندما توليت الرد عليه قائلا «إن الفريق الشاذلى هو الذى طلب منى ذلك» تعجب اللواء مبارك وقال «سوف أسأل رئيس الأركان لأتحقق من ذلك(٤) وأخشى ألا يكون قد سأله.

ربت زميله على كتفه وقال:

- إن اللواء مبارك مشغول تماما بنتائج المناورة، كما أنه سوف يسافر إلى ليبيا بعد قليل ومن المؤكد أنه يريد إتمام المناورات بصورة ممتازة فلا داعى للقلق.

أنهى اللواء مبارك إلى القادة المجتمعين به نبأ التأهب للتحول إلى العمليات الحقيقية وتنفيذ الخطة(٨)، وعندما نهض القادة للانصراف همس أحدهم فى أذن زميله:

- فى هذه المرة لن يستطيع اللواء مبارك أن يجد الوقت الكافى لمعاينة مدى فعالية الهجوم على الأهداف بنفسه كما كان يفعل فى كل مرة من مرات التدريب.

رد زميلة فى اقتضاب:

- أعتقد أنه لن يحتاج، و..

قبلْ أن يستكمل الضابط حديثه كان اللواء مبارك يستدير تجاههم فى هدوء وقد قطب جبينه ذاكرا لهم أنه ينبغى تأجيل إقلاع طائرته التى تستعد

للطيران إلى ليبيا ضمن خطة الخداع(٨).

وقف مبارك يتأمل تمركز قواته الجوية فى قواعدها وأحس نفس ذلك الاحساس القاهر المرير الذى عاناه عندما ألقيت تبعة هزيمة يونيو كاملة على رأس الطيران والضربة الجوية التى أطاحت بسلاحهم صباح ذلك اليوم الأغبر المرير.

تنهد للحظات وتأمل الآية القرآنية المعلقة على جدار مكتبه وعلم القوات الجوية وانتابه شعور اندفع إلى أعماقه مسيطرا أن الانسان الكامن فى أعماق طياريه قد استعد تماما ليعطى فى المواجهة ويثبت قدرته فوق خطوط الموت حاملا القرابين أرواحا صاعدة إلى السماء شهادة ونصرا.

* * *

كانت وكالة المخابرات الأمريكية قد حاولت الاتصال بالوزير الأمريكى هنرى كيسنجر لعرض أحد التقارير الهامة عليه ولما تحقق لها الاتصال بسكرتارية وزير الخارجية الأمريكية كان أعضاء السكرتارية مقتنعين تماما بأن الوزير المثقل بالأعباء فى غاية الارهاق بما لا يسمح لهم بازعاجه من نومه فى هذا الوقت المتأخر من الليل بعد يوم حافل باللقاءات والمشاورات والمباحثات مع عدد من وزراء الخارجية المجتمعين في نيويورك فى اجتماع الأمم المتحدة على مستوى وزراء الخارجية (٥) .

- ومادام الأمر هاما إلى هذا الحد فإن عليكم إرسال التقرير الآن وسوف نقوم بدراسته وإرفاق ملاحظاتنا عليه فى ذات الوقت الذى يستيقظ فيه السيد الوزير فى الصباح الباكر .

- وهو كذلك ، ولو أننى أصر على أن يكون أول شىء يعرض على السيد وزير الخارجية حتى يكون فى اعتباره عند إجراء أى لقاءات أو القيام بمشاورات ومفاوضات مع أى من وزراء الخارجية الآخرين .

- هذا أمر سوف نقوم بتحديده بدون شك ، وبالتأكيد سوف نضع هذه الملحوظة فى تقديراتنا إذا استلزم الوضع تغيير جدول مواعيد السيد الوزير .

كان التقرير الذى أرسلته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ينطوى على تمهيد عن الأحداث المتعاقبه فى منطقة الشرق الأوسط ويرى أنه فيما يبدو الأمر وكأن هناك نوعا من التوتر الشديد الذى يسود المنطقة فإن

الشواهد الأخيرة تشير إلى احتمال حدوث مواجهة محدودة بين القوات العربية والقوات الإسرائيلية فى غضون الأيام القليلة القادمة .

* * *

اللهفة ترسم خطوطاً عميقه على وجوه القادة المصريين فى مركز العمليات الرئيسى للقوات المسلحة المصرية ، وبرغم انهماك كل واحد منهم فى عمل يؤديه ، وتتابع الخطوات فى حركة دائبة إلا أن كل واحد فيهم كان يجد لحظات عابرة ينسحب فيها إلى فكره وهو اجسه تأخذه إلى بحر لجى متلاطم من الظنون والقلق ، فالوقت يمر فى تثاقل بطىء مثير ، وعقارب الساعة تقترب فى بطء من العاشرة ، والعدو الإسرائيلي لم يهجم صباح اليوم مع أول ضوء ، وساعة الصفر تقترب ، وكل الشواهد تدس فى الجوانح اطمئنانا مشوبا بالحذر على أن الإسرائيليين لم يعرفوا بعد التوقيت الحقيقى لساعة الصفر ، ولازالت أمامه فرصة الساعة العاشرة للقيام بضربته الوقائيه (٢).

كانت الأفكار والمشاعر والأحلام تتضارب وتذهب فى الظلمة وتجىء إلى الأمل ، فمما لاشك فيه أن القادة الاسرائيليين قد عرفوا النوايا المبيتة فمنذ بداية العد التنازلى للقيام بالهجوم والتحضيرات والاستعدادات تجرى تحت رقابة عيونه المنبثة فى نقاط المراقبة العديدة المنتشرة داخل حصون بارليف والتى لا تبعد أكثر من مائتى متر وتقوم بتسجيل كل ما يدور على الضفة الغربية لقناة السويس ، أما فى الجولان فإن نقطة المراقبة المقامة فوق قمة جبل الشيخ تكفل للقوات الإسرائيلية كشف تحضيرات القوات

السورية على طول خط المواجهة ، وقد قامت طائرات الاستطلاع الإسرائيلية صباح اليوم بطلعاتها فوق الجبهتين ، وبالتالى فإن كل ما تم وكل ما يتم يجرى رصده وإبلاغه بتفاصيل دقيقة إلى القيادة الإسرائيلية(١٠).

كانت الاحتمالات والرؤى واللهفة كلها تختلط فى مناقشات القادة العسكرية والمعاونين من الضباط المصريين وساد رأى يقول أنه على الرغم من مراعاة أن يكون فى حجم المعلومات التى قصد تسربها ونوعيه هذه المعلومات وإجراء خطة الخداع بدقة لاتزال تثبت كفاءتها ، ما يبعث على الحيرة فى الاستدلال ويبث نوعا من التضاد والتضارب إلا أن وصول معدات العبور الثقيلة والتى من الصعب إخفاؤها قد أعطى إشارة حمراء مؤكدة ذات دلالة واضحة على نية الهجوم المتوقع ، والشىء الوحيد الذى يعول عليه هو إساءة تقدير الموقف حتى يأتى الطوفان (٢) .

وأخيراً وبعد لأى دقت الساعة عشر دقات كاملة والقوات فى أوضاع الهجوم على الجبهتين وقادة الكتائب بدأوا فى معرفة توقيت الهجوم وصدرت الأوامر صارمة بأن تستمر أنشطة أوقات الفراغ وأن يتم تأكيد الخطة المضادة لضربة الاجهاض التى قد تنفذ فى أى لحظة .

اتجهت الأبصار نحو مركز قيادة قوات الدفاع الجوى، وقد ركز اللواء محمد على فهمى قائد قوات الدفاع الجوى على تأمين مواجهات عبور الفرق الخمس المشاة بواسطة كتائب صواريخ سام الكثيفة غرب القناة ، أما تأمين المعابر والكبارى البالغة أحد عشر معبرا فقد جهز مجموعات دفاع

جوى كثيف ضد الطيران المنخفض والمتوسط مكونة أساساً من كتائب الشيلكا والاستريللا (١١) .

كان التجميع الرئيسى لأسلحة وأجهزة الدفاع الجوى مركزا فى منطقة قناة السويس من القنطرة غرب حتى ميناء الأدبية الواقع فى جنوب مدينة السويس وبعمق يصل إلى ثلاثين كيلو مترا غرب قناة السويس حيث احتلت هذه المواقع أكثر من خمس وأربعين كتيبة صواريخ بالإضافة إلي كتائب المدفعية المضادة للطائرات المختلفة العيار وكتائب رادار الانذار والمراقبة بالنظر إضافه إلى المحور المنفصل فى منطقة بور سعيد الدفاعية المرتبط بشبكة الدفاع الجوى فى أكثف تجميع متطور فى العالم أطلق عليه اسم «غابة الصواريخ» ، وزود بنظام الكترونى للمساعدة فى منع الاعاقة والشوشرة ، والمساعدة فى الاستطلاع الالكترونى (١١) .

ولتمويه كان اللواء محمد على فهمى قد أنتهى من تدريبات التنس اليومية ودخل مركز قيادته وتوثبت عينا اللواء فهمى وهو يتأمل فى تركيز منطقة قناة السويس وسيناء والبحر الأبيض المتوسط وتحدث إلى معاونيه مشيرا إلى مواجهات العبور للجيوش الميدانية وتجهيزات المعابر المؤمنة بقوات الدفاع الجوى وأشار بيديه إلى الخرائط التى تنقل إليه الموقف الجوى والبرى فى سماء وأرض مصر وقال فى هدوء بالغ :

- إسرائيل تحسب تماما قدرة وكفاءة حائط الصواريخ الذى يشكل ساتر النيران الصلب وتقدره تمام التقدير ، وتعرف أنه من الصعب اختراقه بسهولة وسوف تركز هجمات سلاحها الجوى ضد هذا الحائط .

ولكن الشيء الهام الذى أريد أن أؤكده هو أنها سوف تدفع إليه بصفوة طياريها وهى فرصة العمر التى سوف يتيحها لنا الله لحرمانها منهم إلى الأبد .

* * *

موجة إثر أخرى من موجات الماء المالح فى البحر الأبيض المتوسط تلطم بدن الباخرة الأمريكية الراسية فى ميناء الاسكندرية ، وقد بدأ البحارة والفنيون فى الصعود على متنها فى تراخ باد قبل أن يبدأ القبطان فى الاستعداد لانطلاقها إلى عرض البحر لإجراء المسح الجيولوجى للشاطىء المصرى .

دخل بحار يحمل إشارة من رئاسه الميناء لم يأبه لها قبطان الباخرة كثيرا وانهمك فى تسجيل بيانات فى أوراقه وبدأ فى مراجعة بيانات أخرى عندما لفت البحار نظره إلى إشارة رئاسة الميناء فوضعها أمامه فى لامبالاة وبدأ يقرأ سطورها التى كانت تحوى طلب عدم الإبحار فى هذا اليوم .

ألقى القبطان بالإشارة المكتوبة فوق المنضدة فى ضجر بالغ وهو يقول فى عصبية :

- هكذا بدون سبب ! ، ولماذا تطلب منى رئاسة الميناء عدم الإبحار؟ هل هناك شيء ما ؟ هل أبلغوك بشيء اخر ، ألا يحتمل أن تكون الإشارة ناقصة ؟ على أية حال سوف اتصل برئاسة الميناء .

عندما اتصل قبطان الباخرة الأمريكية برئاسة الميناء يطلب تفسيرا للقرار

الذى صدر بمنعه من الإبحار وقيامه بتنفيذ أعماله الفنية فى المسح الچيولوچى ، وكان الرد الذى تلقاه من رئاسة الميناء يقول إن هناك مناورات بحرية تجريها القوات البحرية المصرية فى هذا اليوم ولا يوجد داع لإبحار الباخرة الأمريكية (٨) .

ماكاد القبطان يسمع هذا التبرير حتى كانت عصبيته قد زادت الأمر الذى دفع رئيس الفنيين الذى يعمل على متن الباخرة إلى أن يأخذه من ذراعه ويهمس فى أذنه طالبا منه التوجه معه إلى المسئول فى وزارة الصناعة التى اتفقت مع الشركة الأمريكية للقيام بهذا المسح الچيولوچى للشاطىء المصرى .

كان القبطان الأمريكيى الجنسية يقود السيارة بنفسه وإلى جواره قبع رئيس الفنيين الأمريكى الجنسية أيضاً وهو يهدىء ثورة الأول وانفعاله ، وعندما وصلا إلى مكتب المسئول فى وزاره الصناعة .

قال القبطان :

- ليس من الجائز أن تتخذ رئاسة الميناء قرارا بمنع باخرة تعمل بصورة فنية على الشاطىء البعيد من الميناء الذى تجرى فيه المناورات والتدريبات التى تقوم بها القوات البحرية (٨) كما أنه ليس من العدل إخطارنا بقرار المنع ونحن نتأهب للاقلاع .

وأضاف رئيس الفنيين :

- من الطبيعى فى هذه الحالة أن أقوم بإخطار شركتى لاسلكيا بقرار منع الباخرة من الإقلاع وإبلاغهم عن سبب المنع (٨) .

تبسم المسئول فى وزارة الصناعة وهو يطلب إليهما أن يستريحا ، وفى خلال زمن قصير لن يزيد بحال عن الدقائق العشر سوف يكون حل المشكلة مرضيا لهم ، وأدار أرقام هاتف وانتظر قليلا حتى يأتيه الرد .

❋ ❋ ❋

كان الاسترخاء قد تمدد فوق الوجه الملىء بالتجاعيد للفريق أول أحمد اسماعيل على وزير الحربية المصرى عندما نظر إلى رفاقه على منصة القيادة يقول :

- باستثناء إعلان حالة الطوارىء فى مركز تعبئة الاحتياطى والأوامر الصادرة إعلان حالة الاستعداد القصوى فى الجيش النظامى بأكملة وإلغاء الأجازات وبقاء جميع الرتب فى أماكنهم جاهزين ، وتمركز كافة قوات السلاح الجوى فى قواعدها الجوية فإن كافة تقارير الاستطلاع وبلاغات العمليات تؤكد على أن العدو لم يستعد بعد للقيام بضربة وقائية لإجهاض الهجوم (٢) .

ونظر إلى الخرائط وأضاف :

- والأمر الآن وفى هذه اللحظة يجسد نظرة شاملة لما يتوقعه العدو ، فهو على أقصي تقدير يرى أن ما يمكن لنا عمله هو إقامة رءوس جسور على نقط من الشاطىء عند غروب الشمس ، ونأمل من الله أن يوفقنا بعونه ليكون الاجتياح اندلاعا للحرب بصورة غير متوقعة وفى توقيت غير مألوف (٢).

- لقد أدينا واجبنا بثقة فى الله وبإيمان لم يتزعزع وإن خدر الطمأنينة بالعجز المتوهم عنا الذى جاهدنا فى اللحظات الأخيرة لكى يصلوا إليه ، وهو عدم قدرتنا على شن الحرب سيحقق مفاجآتنا لهم .

قال الفريق سعد الشاذلى

- إن كل دقيقة تمر تجعلنى أكثر اقتناعا أننا بمشيئة الله سننتصر ، والله أكبر سوف تكون نداء الجنود إلى الله (٤) .

قطع رنين مباغت طويل لهاتفين فى وقت واحد الحديث ونشر فوق الوجوه المترقبة فى لهفة التوتر .

تناول الفريق الشاذلى سماعة هاتف وعيناه تتابعان الخرائط وأنشأ يتحدث إلى قائد الجيش الثانى الميدانى اللواء سعد مأمون (٤) ، فى اللحظة التى كان اللواء الجمسى يلتقط سماعة الهاتف (٨) .

استرخت عضلات وجه اللواء الجمسى وهو يستمع إلى محدثه يروى اتصال مندوب وزارة الصناعة الذى حكي قصة الباخرة الأمريكية التى عطلتها رئاسة الميناء عن القيام بمهمتها فى المسح الجيولوچى للشاطىء المصرى ، وأضاف المتحدث :

- ومن شأن هذا التعطيل أن يكلف وزارة الصناعة مصاريف اضافية عن يوم تعطيل الباخرة (٨) .

قال اللواء الجمسى :

- ومن شأن هذا التعطيل أن يبادر القبطان بإذاعة السبب على أجهزة اللاسلكى التى يمكن أن تلتقطها أجهزة العدو ، يلغى الحجز ويسمح للباخرة وقبطانها وبحارتها وفنيوها الأجانب بالابحار فورا والقيام بعملياتها كالمعتاد (٨) .

لم يكن هناك من يريد أن يقطع الصمت الذى ران على غرفة العمليات إلا أن الفريق سعد الشاذلى قال :

جميع الوحدات تلتزم التزاما جيدا بالصمت التام فى جميع أعمالها وتحركاتها كما هو مخطط .

نظر الفريق أول أحمد اسماعيل إلى ساعته وقال :

- مازال الوقت مبكراً للذهاب إلى السيد الرئيس .

ونهض لمقابلة اللواء محمد على فهمى واللواء محمد حسنى مبارك اللذان قدما لعرض موقف قواتهما.

* * *

. . . . . .

كان اجتماع جولدا مائير مازال مستمرا مع ديان واليعازر وسألت جولدا مائير ديان عن احتمالات ضربة الاجهاض وكان رده :

- إن مجموعتى عمليات مدرعتين بمقدورهما معالجة الموقف مع سلاح الجو ، فإن المصريين إذا أمكن لهم عبور القناة فسوف يكون موقفهم عسيرا بعد سقوط آلاف الضحايا فى قناة السويس وأشد عسرا فى الصحراء المكشوفة عند تعرضهم للهجمات المضادة من جميع الاتجاهات وسيتراجعون فى انهيار (٦) .

توقف ديان قليلا ثم أضاف :

- أما فيما يتعلق بالجبهة الشمالية فإن نشاط الطيران سيكون محدودا خصوصا مع سوء حالة الجو ، والعمليات الحاسمة لن يمكن تنفيذها ليلا إلا بواسطة القوات البرية على أن يتدخل الطيران فى صباح اليوم التالي ، فإذا ماساء الموقف ولن يسوء فالحشد بإمكاننا خلال ساعات ، ويجب ألا نتعجل النصر فى يوم واحد فيجب أن ندمر قواتهم (٦) .

كانت جولدا مائير تتابع حديثه فى اهتمام بالغ وعيونها تتجول فى وجه دافيد اليعازر رئيس الأركان الذى كان يتلون بألوان الطيف ، واسترسل ديان غير مبال بعصبية الجنرال دافيد اليعازر :

- أما بالنسبة لضربة الإجهاض التى يقترحها دادو فإنها سوف تكون محدودة فى الوقت الحالى وبالتالى لن تكون مؤثرة فإن مصر أقامت مواقع دفاعية قوية على حين أنه في الجبهة السورية فإن الضربة قد لا تأتى

بالنتيجة المرجوة إذ ستتم فى وقت يتأهب فيه العدو للهجوم ، وسوف تتم بالاعتماد على سلاح الجو وحده مما يعرض الطيران لشبكة الصواريخ القوية الخاصة بالدفاع الجوى السورى مباشرة بما فى ذلك التعرض من الخسائر المحتملة مع افتقاد عنصر المفاجأة (٦) .

علق اسرائيل جاليلى قائلاً وهو يضغط حروف كلماته :

- إننا لو بدأنا إطلاق رصاصة واحدة فسوف نعطى الحجة لاتهامنا بأننا معتدون وقد لا نستطيع مجابهة الأمر مع أصدقائنا (٣) .

انتفضت جولدا مائير وهالها الأمر (٣) وقالت :

- أنا التى يجب أن تقرر ، إن هناك معيارا واحدا فمادامت هناك حرب فليكن موقفنا فى أقصى حالات الاستعداد الممكنة ويتم الاستدعاء وفق ما اقتراحه دادو (٣) .

وعندما أبدى الجنرال دافيد اليعازر رأيه مرة أخرى بشأن ضربة الإجهاض قالت مائير :

- يا دادو إننى أعرف كل مبررات الضربة الوقائية ، ولكننى ضدها ، فكلنا لا يعلم ما الذى يخبئه لنا المستقبل، لكنه يبقى هناك احتمال أن نحتاج إلى المساعدة ، فإذا بدأنا بالضربة الأولى فلن نحصل على شىء من أحد وكم كنت أحب أن أقول نعم لأنى أعرف ما الذى تعنيه ، لكننى سأقول لا بقلب كسير (٣) .

أومأ آلون برأسه وهو يقول فى تأكيد :

- إن المصريين فى آخر لحظة سوف يغيرون رأيهم، ولن يعرفوا كيف

يبدأون ، وإذا بدأوا فسوف تضيع المبادأة من أيديهم فور أن يبدأ تصدى جيش الدفاع لهم .

قال الجنرال دافيد اليعازر :

- إن لدي اقتراحا بأن يقتصر الهجوم الوقائى على سوريا وتحديدا على قواعدها الجوية الداخلية لاعلى منطقة الجبهة أو حتى على نظام دفاعها الجوى الصاروخى (٦) .

انتهى الاجتماع وانصرفت جولدا مائير لكى تقوم بإجراء الاتصال العاجل بالولايات المتحدة الأمريكية لحثها على التدخل العاجل وطلبت من سيمحا دينتز سفير إسرائيل فى واشنطن الذى تصادف وجوده فى إسرائيل أن يعود على الفور إلى واشنطن وطلبت استدعاء مناحم بيجين على وجه عاجل لابلاغه بما يحدث (٣) .

جمع الجنرال ديان أوراقه على عجل يغادر مقر الاجتماع مهرولا ، ونظر آلون إلى ساعته التى أشارت إلى الدقيقة العاشرة قبل الحادية عشرة وقال مخاطبا ديان :

- مما لا شك فيه أنك فى (الحفرة) سوف تعيد تقدير الموقف فإذا عن لك أن تغير رأيك بشأن ضربة الإجهاض فلا تزال أمامك فرصة القيام بالهجوم الوقائى ، فالعدو سوف يقوم بالهجوم فى السادسة ونحن الآن قبل منتصف النهار ومن الآن وحتى لحظة الحرب قد تتاح لك خلال الساعات الباقية فرصة (٢) .

لوح ديان بيديه وقال

- ربما ، مَنْ يدرى ؟ سوف نحاول النظر فى تنفيذها بالتأكيد وتوجه

إلى عربته فى طريقه إلى المركز الاستشارى لمجموعة العمليات فى مبنى مركز العمليات المعروف باسم (الحفرة) (٦) .

* * *

أمام الحاج محمود تاجر الخضر فى مدينة السويس كان يقف بعض الفلاحين من أهالى قرية الأخارسة إحدى قرى السويس ، أما عن باقى مرافق المدينة فلم يكن العمل بها صباح ٦ أكتوبر يختلف عن الأيام السابقة(١٢) .

كانت فهمية عمران تطوف الشوارع ، ولم يكن أحد يعرف كيف كانت تعيش ، ولا يوجد فى مدينه السويس أحد لا يعرف فهمية عمران ، فهى لا تتحدث مع أحد ، ترفض الصدقة ، ولم يكن أحد يعرف كيف كانت تعيش ، ونسجت حولها الأساطير ، وخلال يوم ٦ أكتوبر كانت تجوب المدينة كعادتها (١٢) .

كل شىء فى المدينة يسير كالمعتاد ، الفتور يبدو واضحا على وجوه الناس ، كان محمود عامل مقهى أبو جازية - المهقهى الوحيد الذى ظل يعمل بالمدينة - قد فتح أبواب المقهى ، وبدأ بعض رواد المقهى يتوافدون إليه (١٢) .

استيقظ الجندى شعبان من نومه مفزوعا على أصوات عاليه صاخبة ، واسترخى فى خدر محبب قبل أن ينهض قائما خارجا من خندقه ليستطلع سر الجلبة التى أقضت مضجعه وأقلقته .

فى لحظة واحـدة انتابه الغضـب وباغتته الدهـشة فقد كان زميـله عبد الحفيظ يتمدد فوق تـلة من الرمال بينما الرائد توحيد بنفـسه ، نعم بنفسه يشترك مع جماعته فـى مباراة كرة القدم التى تدور رحاها بين فـريقين فى صخب هائل وضجيج مفزع ومرح غريب .

هز رأسه كم لا يصدق الأمر ثم انضم إلى المتفرجين وشعر بالغليان فى رأسه عندما عرف أن الأوامر قد صدرت بتنـاول طعام الغداء وإفطار جميع الأفراد ، وكتم فى صدره إصراره على صيام اليوم .

كانت عربات محملة بالرجال تقـترب من أسفل التل ، وفوق قمة التل كانت مـجموعة من ضبـاط التشكيـلات تضم عددا من ضبـاط المدرعات والمدفعية والمهندسين والاشارة والمشاة يتجولون (١) ويتهامسون ويتحدثون فى هذر ، وفى جدية .

انفرد واحد منهم بـنفسه بعيدا عن رفاقه يلقى نـظرة ساهمة إلي الأفق البعيد عندما فـاجأته ضربة كف فوق ظهره ، وقـال لـه زميـلـه العميد عبد القوى :

- هل هربت لتشاهد الفتيات على الضفة الأخرى ؟

ابتسم رضوان وقال :

- أنت أدرى يا سيدى بما أشاهده !

قال العميد عبد القوى :

قل الحق وصف لى ما ترى !!

قال فى صوت شجى وكأنه يرتل فى صلاة حارة خاشعاً :

- والله يـاسيدى إن المشهد لـهيب رهيب يمـتد ملء السمع والـبصر ، كأنما أمة بأسرها تتحرك وتشد من جوف التاريخ حضارتها الممتدة .

- ياسيدى هذه صفوف منتظمة من كتائب المدرعات عليها وجوه لرجال قبل لقاء الموت قضوا الليل منتبهين عـلى الصدر فيهم انطباع الألغام تنفجر والشراك الخداعية تدوى ، وفى رموشهم السمراء التى أراها من بعيد وقاء من فوهات حريق تمتد لتصنع تجاويف فى العيون ذات البريق.

- يا سيدى إنى أرى الخـنادق تلفظ مردة من جنود المشـاة الذين قضوا الليل دون حـركة ، كأنما صرح هائـل من الخوف والعار ينـدك تحت وطأة بطولة شـهية نادرة لا تموت تلـتهم كائنات الـذعر والقلق وأسمـع ياسيدى تناثر أصـوات لجنود يطيرون فـوق موجات الموت ، وفى أصواتـهم ثرثرة الصبا وعبث الشباب ودعابة العنفوان .

- أرى يا سيـدى عربات ضخـمة للمهـندسين فى حشـد عظيم كـسيل يتدفـق نحو الوادى وعـلى متن الحديـد لحم يتنـاول طعام الغـداء ، وكل جندى يعرف علم اليقين واجبه وعمله وقد بانت فى عروقه قسوة التدريب الطويل فى الليالى القاسية بساعات الذل والهوان فيها

كان زملاؤه قد تحلقوا حوله ، وانسابت الدموع من عينيه فمد أحدهم إليه منديلا فنظر إليه وصمت وقال زميل :

- وأنا ، الاشارة نسيتنى

وصاح آخر :

وأنا ، المدفعية .

قال رضوان محمد عثمان المدفعية بمبه .

ضحكوا عاليا وانسلوا فى صخب يقفزون إلي أسفل تل الرمال ، وقال العميد عبد القوى :

- والله يا رضوان ، لقد أضحكت وأبكيت.

❊ ❊ ❊

كان أبا يبان وزير خارجية اسرائيل قد ترك اسرائيل قبل أسبوعين لحضور اجتماعات الأمم المتحدة ، وفي تلك الليلة كان قد أوى إلى فراشه مبكرا بعد سلسلة من الاجتماعات المتصلة لوقف إصدار أى قرار يخص احتلال إسرائيل للأراضى العربية وعندما استيقظ على صوت طرقات عالية على باب غرفته فى فندق بلازا (٥) فى مدينة نيويورك سلمه المستشار السياسى لوزير الخارجية الاسرائيلى إيتان بن تسور برقية الوزير اسرائيل جاليلى التى تسلمها القنصل الإسرائيلى فى نيويورك .

فى السفارة الإسرائيلية فى واشنطن كان الوزير المفوض مردخاى شليف قد جلس على مقعد فى مكتبه عندما دخل إلى مكتبه العميد موتى جور الملحق العسكرى الاسرائيلى فى السفارة الاسرائيلية وأعطاه نص برقية وزير الدفاع موشى ديان التى يطلب فيها الاتصال بالمسئولين فى البنتاجون لاخطارهم بالموقف وطلب العمل الفورى لتأمين وصول الإمدادات العسكرية إلى اسرائيل فى أقرب وقت .

❊ ❊ ❊

لم يطلع الفجر بعد فى واشنطن ولا فى نيويورك وفى هدوء الليل

الهاجع بـدت الأنوار القليلة المضـاءة فى فندق والدورف استوريـا الضخم باهتة وجنود الحراسة الذين يرتدون الملابس المدنية يحومون حول الفندق، وجلس عامل الاسـتقبال يتحدث إلى ساقـية جميلة عن تجهـيزات الصباح للضيوف المهمين فى أجنحة الفندق .

ارتفـع صوت جرس الهـاتف فى أحد الأجـنحة مـن الطابق الخـامس والثلاثـين فبدأ مزعـجا ، واستمـر الرنين (٥) ، وامتـدت يد النائـم فوق السرير تحمل سماعة الهاتف ، بينما كانت يده الأخري تفرك عينيه ، وقبل أن يضع سماعة الهاتف عند أذنه أضاء المصباح القابع إلى جواره ونظر إلى ساعته المـلقاة إلى جواره وأطفأ المـصباح مرة أخرى وأجاب علـى الهاتف قائلاً :

- نعم

كانت السـكرتارية تتصل من الخـارج بوزير الخارجية الأمريكـية هنرى كيسـنجر ، وأقلقه الـصوت الحاد الذى تسـرب إلى أذنيه وعندمـا شعر أن الحجرة لاتزال غارقة فى الظلام إلا من ضوء قليل متسلل عبر النافذة أوقد المصباح الكهربـى مرة أخرى. في اللحظة التى اندفع فيهـا مساعده لشئون الشرق الأوسط جوزيف سيسكو مخترقا الحراسة المشددة داخلا إلي جناح نوم هنرى كيسنجـر ليضع أمام عينيه التى لم يذهب عـنها أثر النوم الموقف المتفجر، وخلال الحـديث رن جرس الهاتف وهز كيسنـجر رأسه وهو يرد على التحية التـى ألقى إليه بها عبر الهاتف أبا ايبـان وزير خارجية اسرائيل الذى يتحدث إليه من نيويورك وأضاف كيسنجر :

- أية ريح ياترى تلك التى قذفت بك فى هذه الساعة .

قال إيبان فى لهفة :

-إرنها ريح الحرب فى الشرق الأوسط ، فالعمة جولدا اتصلت على التليفون السرى المباشر تأمر بالاتصال الفورى بالسيد الرئيس لنقل رسالة عاجلة وبالغة الأهمية عن الهجوم المصرى السورى الوشيك الوقوع على إسرائيل فى غضون ساعات قليلة ، وهى تطلب تدخل السيد الرئيس فوراً(٥) .

* * *

على الطريق الضيق الذى يربط بين مدينة بورسعيد ومدينة دمياط والبالغ طوله خمسة وسبعين كيلو مترا كانت مجموعة من الصيادين تقف عندشاطىء بحيرة المنزلة يشدون قاربا فى المياه الضحلة وكان أفراد من القوات المصرية فى نقطة المراقبة بالنظر التابعة لحرس السواحل يجوبون الأفق بنظارات الميدان فوق المناطق السبخية التى تغمرها المياه وتنحسر عنها أثر تدافع الموج وأوبته .

وفى المنطقة التى تضم بور سعيد وبور فؤاد كانت عيون بعض الرجال تتأمل كوبرى القطع الذى يصل بين بور فؤاد ولسان رمانه ، وكانت مجموعة أخرى تعاين كوبرى قناة الملح .

كان المهندس مشهور أحمد مشهور قد تابع بنفسه تولى الأوناش الضخمة التابعة لهيئة قناة السويس نقل الدبابات والمدفعية المتوسطة ومدفعية الميدان إلى منطقة بورفؤاد بعد أن عجزت معديات الهيئة عن نقل

هذه المعـدات ، وفى هذا الوقت كـان يتابع تـعبئة أفراد الـورش والمعدات والأوناش وأحواض السفن والمستشفيات التابـعة للهيئة لتكون كل مواردها جاهزة تحت تصرف القيادة العسكرية (١٣).

عندمـا أبلغه مهـندسو الهيـئة أن حوامل وأعمـدة الكبارى فى مـدينة بورسعيد ومدينة بـورفؤاد قد تم التأكد من تثبيت النطاقـات المعدنية حولها لحمايتها من الألغام العائمة.

❊ ❊ ❊

فى بيرسبع مقر قيادة الجبهة الجنوبية فى سيناء والنقب كان الجنرال شموئيل جونين قد فرغ لتوه من لقاء رئيس الأركان دافيد اليعازر ودعا جونين إلى اجتماع عاجل لضباط أركان الحرب فى مقر قيادته .

قبل أن يبدأ الاجتماع أجرى اتصالا هاتفيا مع الجنرال ابراهام مندلر قائد الجبهة فى سيناء ، وكانت الجبهة الإسرائيلية على قناة السويس التى تمتد على مواجهة تصل إلى مائة وستين كيلو مترا مقسمة إلى ثلاثة قطاعات تتشكل قوتها من مجموعة عمليات بقيادة الجنرال مندلر الذى كانت تحت قيادته فى المجموعة لواء مشاة وثلاثة ألوية مدرعه (١٣) .

كانت خطة أبراج الحمام (شوفاخ يونيم) الإسرائيلية للدفاع عن قناة السويس قائمة على أساس أن تتولى الألوية المدرعة مسئولية الدفاع مؤقتا عن المحاور الثلاثة الرئيسية بحيث يتولى لواء العقيد جابى مسئولية الدفاع عن محور القنطرة - العريش ، ويتولى مسئولية الدفاع عن محور الإسماعيلية أبو عجيلة لواء العقيد آمنون ويكون لواء العقيد دان مسئولا عن الدفاع عن محور السويس متلا والجدى (٦) .

أخبر الجنرال جونين العقيد مندلر باستدعائه إلى اجتماع هيئة الأركان العامة فى تل أبيب وتلقى تعليمات الجنرال اليعازر بتأهب القوات الإسرائيليه فى سيناء استعداد لتلقى الهجوم المصرى المرتقب فى الساعة السادسة من مساء اليوم وأن تستعد القوات لامتصاص القصف والقيام

بعملية الصد على أن تقوم القوات بعبور قناة السويس إلى الغرب وإنشاء رأس كوبرى وفقا للخطط الموضوعة بعد صد القوات المصرية وكسر الهجوم المصرى والقيام بالهجوم المضاد (١٣) .

كانت تعليمات جونين إلى مندلر تقضي بسرعة إبلاغ جميع الوحدات والمواقع بالاستعداد لامتصاص ضربة المدفعية وألا تتحرك الدبابات إلى مواقعها الأماميه إلا فى الساعة الخامسة مساء حتى لا يرى المصريون من وراء سواترهم حركة الدبابات مما يتيح لهم الفرصة لتغيير أوضاع نيران مدافعهم ، وحتى لا يكون لديهم إنذار بأن القوات الاسرائيلية قد رفعت درجة الاستعداد مع الاحتراس من تصعيد الموقف إذ ربما لا يكون فى نية المصريين القتال (١٣) .

قال الجنرال مندلر معترضاً :

- اسمع يا سيدى ، إن تأخير تحرك الدبابات حتى الساعة الخامسة يعترض مع خطتنا الدفاعية إذ أن (أبراج الحمام) تتطلب توافر ساعتين على الأقل لتنفيذها .

قال جونين :

- أري ذلك ، وأنا مقتنع به ، فليكن ، أنا موافق على أن تتحرك الدبابات للأمام فى الرابعة لاحتلال مواقعها .

بينما انصرف مندلر لاصدار أوامر الاستعداد لقواته كانت القوات المدرعة تستقبل أمر الاستعداد للتحرك إلى المواقع الأمامية للاشتراك فى

صد الهجوم المصرى ، فى هذا الوقت دخـل الجنرال جونين مقر الاجتماع بضباط هيئه أركان الحرب ، وحاول أن يبدو مـتلطفا بعض الشىء بعد أن دهس بقدمـه فى عنف سيجـارة سحبها من فـم أحد الضباط وهو يـونخه على تدخينه السجائر فى يوم السبت ، وفي يوم عيد الغفران .

فى الاجتمـاع استقر رأى جونين وضـباطه على الإجراءات الـتى اتفق عليها مع الجنـرال مندلر على أن تتأهب القوات لفتح مـواسير إشعال قناة السويـس وتبدأ منذ هـذه اللحظة إجـراءات التأكد من صـلاحيتها لـتكون جاهـزة فى السـادسة على أن يـتولى الـلفتـنانت شيـمون تال مـن سلاح المهندسين المرور على الصنابير وشرح مهمة الإشعال لجنود المواقع .

* * *

كانت الخارجية الأمريكية قد أعدت تقريراً من صورتين الأول موجه إلى وزير الخارجية هنرى كيسنجر والثانى عبارة عن رأيها فى الموقف لإرساله إلى وزير الدفاع الأمريكى جيمس شيلزنجر ، واحتوى التقرير على صورة لما دار فى اجتماع كينث كيتنج سفير الولايات المتحدة الأمريكية فى تل أبيب مع رئيسة وزراء إسرائيل .

كان التقرير يركز على أمرين أولهما أن إسرائيل تعرف أن الهجوم المصرى السورى سوف يبدأ فى ساعة متأخرة من بعد الظهر ، وأن إسرائيل لن تبدأ الضربة الأولى وترى السيدة جولدا مائير أنه ربما يكون هناك شىء يمكن عمله من أجل منع وقوع الحرب سواء بتدخل أمريكى مع الروس أو حتى مع المصريين والسوريين مباشرة .

وفى كل الأحوال فقد أكدت السيدة رئيسة الوزراء أن اسرائيل لن تقوم بضربة إجهاضية وقائية (٣) .

كان وزير خارجية أمريكا يمسك بصورة التقرير فى يده بعد أن فرغ لتوه من محادثة أبا إيبان الذى طلب إليه التدخل الفورى لدى مصر وسوريا لمحاولة إثنائهما عن تنفيذ القرار الذى اتخذاه لشن الحرب .

جمع كيسنجر حوله عددا من مساعديه الذين بدأوا في ترتيب جزئيات الصورة وتنظيم عناصر الحركة للحيلولة بين العرب وشن الحرب ، وبرز اتجاه لترك الأمور على عواهنها مع البدء فى الإعداد لعملية إمداد إسرائيل بالسلاح مع مراعاة المصالح الأمريكية فى المنطقة .

بادر كيسنجر بمتابعة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية طالبا عرض الموقف فى إيجاز لنقل الصورة الحقيقية لما يجرى من أحداث فى هذه البقعة الملتهبة من العالم ، وسمع كيسنجر من وكالة المخابرات المركزية آخر مانقلته الأخبار والتقارير من سوء ينذر بهبوب العاصفة بعد ساعات قلائل(٢) .

انثنى كيسنجر يوقظ الرئيس الأمريكى من نومه فى «كى بيسكين» بولاية فلوريدا التى يقضى فيها أجازته ، وأبلغ هنرى كيسنجر الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون مضمون رسالة جولدا مائير وبما فى حوزته من تأكيدات المخابرات الأمريكية من أن هناك حشودا سورية ومصرية تتأهب للقيام بمغامرة خطيرة دعا اليأس زعماءهم إليها وأن توقيت نشوب القتال سوف يكون قبل السادسة من مساء اليوم قبل غروب الشمس بتوقيت الشرق الأوسط (٢) .

كان الشىء الأول الذى أثار قلق الرئيس نيكسون هو احتمالات التدخل السوفيتى فى القتال الذى قد ينشب بين لحظة وأخرى (٥) لذا شرع يتفق مع كيسنجر على الخطوات اللازمة لمنع هذا التدخل بكل صوره وبأسرع مايمكن ، كما طلب نيكسون من كيسنجر إخطار السكرتير العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم بحقيقة الموقف وطلب تدخله مع مصر وسوريا من جانب والأتحاد السوفيتى من جانب آخر .

طلب كيسنجر من معاونيه دعوة وزير الدفاع الأمريكى ومدير المخابرات للإجتماع به فى قاعة الخرائط مساء اليوم لبحث الترتيبات اللازمه ، ثم

اتصل كيسنجر بالسفير السوفيتى أنا تولى دوبرينين لفتح الخط الساخن بين البيت الأبيض فى واشنطن والكرملين فى موسكو لنقل رسالة عاجلة من الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون إلى نظيره الزعيم السوفيتى ليونيد بريجنيف ، وتتضمن الرسالة :

إن مأساة جديدة توشك أن تحل بالشرق الأوسط ينبغى تحاشى وقوعها، وأنه إذا كانت مصر وسوريا قد عقدتا العزم على شن هجوم على إسرائيل فإن الولايات المتحدة الأمريكية استمرارا لسياسة الوفاق تقدر التدخل القوى للإتحاد السوفيتى لدى أصدقائه فى المنطقة لمنع وقوع كارثة فى الشرق الأوسط (٢) .

واسترسلت الرسالة تضيف

- أما إذا كانت الحشود والتحركات الأخيرة تحسبا لقيام اسرائيل بشن غارات ضد العرب فإن الولايات المتحدة الأمريكية تؤكد نيابة عن إسرائيل أن الأمر غير وارد فى الحسابات الإسرائيلية (٢) .

بعد أن اطمأن كيسنجر إلى وصول رسالته إلى الزعماء السوفيت كان ذهنه صافيا تماما وقام بارتداء ثيابه وطلب الاتصال بوزير الخارجية المصرى محمد حسن الزيات الذى كان موجودا فى نيويورك والذى كان قضى معه ساعتين فى اجتماع مطول قبل ساعات قليلة بحثا خلالها الموقف من كافة جوانبه وكان كيسنجر قد وعد الوزير المصرى الذى خدعه بتناول مشكلة الشرق الأوسط بعد الانتخابات الاسرائيلية التى كانت سوف تجرى فى

نهاية الشهر الحالى .

نفي الوزير المصرى محمد حسن الزيات لكيسنجر علمه بأية أنباء عن الحرب الوشيكة (٥) فطلب منه كيسنجر أن يبادر على الفور بنقل رسالة إلى القيادة المصرية تشتمل على نفس النص الذى تحمله رساله نيكسون إلى بريجنيف ونقلت أسلاك الهاتف إلى أذن الدكتور الزيات تحذير الولايات المتحدة الأمريكية من شن هجوم على اسرائيل حتى لا تزداد حدة المآسى التى تحاول أمريكا حلها فى هذه المنطقة الحيوية من العالم ، واختتم كيسنجر حديثه بقوله :

- نناشدكم أن تضبطوا النفس لمصلحة الجميع ، وبدون شك فإن الإدارة الأمريكية سوف تقدر تقديراً بالغاً استجابة الحكومة المصرية ، ولن أكرر على ضرورة الاتصال فورا بالقاهرة لإبلاغ الرسالة العاجلة إلى السيد الرئيس السادات .

على امتداد ألف وثمانين كيلو متر طولا وبعرض يتراوح بين مائه وثمانين إلى ثلاثمائه كيلو متر عرضا تتشكل محافظة البحر الأحمر الممتدة من جنوب السويس إلى حدود السودان جنوبا وتمتد مواجهتها من بير عديب الواقعة على خليج السويس حتى بير أبو العصون جنوبا ، وتنقسم إلى خمسة قطاعات فرعية هى :

القطاع الشمالى يليه قطاع رأس غارب والقطاع الأوسط وقطاع سفاجا وقطاع وادى قنا الواقع بين قنا وسفاجا (١٣) .

لحماية الجناح الأيمن للقوات المسلحة المصرية ولتخفيف الضغط عن رءوس الكبارى المصرية فى الشرق بجذب احتياطات العدو جنوبا فى اتجاه لم يكن مخططا من قبل (١٣) كانت هناك مهام قد تحددت لمنطقة البحر الأحمر العسكرية فى خليج السويس وعلى ساحل البحر الأحمر وعلى الشاطىء الشرقى لخليج السويس وفى جنوب سيناء ذات الجبال الوعرة والشاهقة الارتفاع .

كان هناك إدراك بالغ للمهمة الشاقة التى بدأ أفراد الصاعقة يتأهبون لتنفيذها بعيداً عن القوات وكان العميد جمعه ابراهيم قائد القاعدة البحرية يراجع مع ضباط الصاعقة ورئيس أركان منطقة البحر الأحمر العسكرية العميد إبراهيم رشيد مهمة مجموعة العمليات المشكلة من القوات البحرية ويمثلها العميد على غانم ومن قوات الصاعقة ويمثلها العقيد كمال عطية وضابط اتصال من القوات الجوية (١٣) .

كان رئيس الاشارة بالمجموعة يعطي تمام الاستعداد للاستفادة بخطوط الهاتف المدنية المقامة على الأعمدة على امتداد الطريق بمحاذاة ساحل البحر الأحمر للاتصال بين مختلف العناصر المشتركة فى العمليات ، وكان قد تم تجهيز مناطق الإبحار وتأمين المواصلات بين مناطق الإبحار والمناطق الابتدائية للتجميع وتمت مراجعة خطوط سير القوارب البحرية عبر الخليج ، فى هذا الوقت كان اللواء إبراهيم كامل يخطرهم بساعة الصفر التى كان أغلبهم قد عرف بها منذ زمن قليل .

فى أقصى الجنوب فى البحر الأحمر تدافعت أسماك تفر هاربة أمام ثلاث مد مرات وغواصتين (١١) تشق طريقها فى مهمة السيطرة على مياه باب المندب ، وفوق صفحة المياه الزرقاء فى عرض البحرين الأبيض المتوسط والأحمر نزع قادة بعض الوحدات البحرية الشمع الأحمر والخيوط عن المظاريف السرية التى حملوها معهم قبل إقلاعهم .

كان اللواء فؤاد ذكرى قائد القوات البحرية فى مركز قيادة القوات البحرية فى القاعدة الرئيسية بالإسكندرية يتابع آخر إشارات لاسلكية أرسلت إلى قادة القطع البحرية لتنفيذ مهامهم وبالنسبة للواء ذكرى كانت الحرب قد بدأت فعلا بالنسبة لبعض الوحدات فقد أبحرت الغواصات يوم أول أكتوبر لتتخذ أوضاع القتال وتقوم بتنفيذ المهام المخصصة لها فى التوقيتات المحددة لذلك ، ولأغراض الأمن والسرية فقد فرض على هذه الوحدات صمت لاسلكى تام ولم تكن هناك أية وسيلة للاتصال بهذه الوحدات إلا بعد بدء العمليات الفعلية (٤) .

قبل أن تخرج الغواصات إلى البحر كان اللواء ذكرى قد اتصل بالفريق الشاذلى وقال له :

« ستخرج الغـواصات إلى البحر الآن ، إنى أؤكد لـك مرة أخرى أنه ليسـت هناك وسيلة لـلاتصال بهم لإجراء أى تـعديل فى التوقـيت ، هل أعطى الأمر بالخروج ؟ » (٤) .

رد الفريق الشاذلى :

« نعم لا تغيير فى أى شىء »(٤) .

كان علـى القوات البحـرية المصرية التـى تضم قوات حرس الـسواحل وقوة صاعقة بحرية أن تحمى الساحل المصـرى بقوتها التى تزيد عن خمسة عشـر ألف جندى وتـتألف من ١٢ غـواصة وثمانـى مدمرات وفرقـاطات وتسعـة عشر زورق صواريخ وأربعـة وثلاثين زورق طوربيد وأربـع عشرة كاسحة ألغام وعدد من السفن الصغيرة من بينها وحدات إنزال (١) ، وقد تم إرسال بعـض الغواصات إلى ميـناء سفاجا الـواقع على البحـر الأحمر بالإبحـار عن طريق رأس الرجـاء الصالح ، وكـانت هناك مفـاوضات قد جرت مع الباكستانيين لإجراء إصلاحـات بحرية لبعض الوحدات وإرسلت مجموعة مـن الوحدات إلى ليبيا لتـهديد طريق البحر المـتوسط واستدراج زوارق الصواريـخ الإسرائيلية لاسـتكمال حلـقات الحصار البحـرى على إسرائيل .

كان الفريق ذكرى قد فرغ لتوه من التأكد من إرسال الإشارات كلها إلى

الغـواصات فى سفـاجا والمدمـرات فى عدن لـلبدء فى الأعـمال الحربـية وإغلاق الطـريق أمام الملاحة بأسـرها فى مضيـق تيران وخليج الـسويس ومضيق باب المندب .

القاهرة بزحامها المحبب وعبق التاريخ الآسر ينتشر بين أزقة وحوارى السيدة زينب والحسين ويمتد حتى يصل إلى ميدان العباسية المكتظ بعربات النقل العام الحمراء وصياح السائقين وبنات المدارس فى قلب الشارع ويمتد الطريق باتجاه كوبرى القبة حيث يخلو الشارع وتخف حدة الزحام ، ولم يكن هناك فى الشارع أو فى المنطقة المحيطة من يأبه للسيارة العسكرية التى كانت تسير فى اتجاه قصر الطاهرة بحى سراى القبة تقل الفريق أول أحمد إسماعيل على وزير الحربية المصرى قادما من مركز قيادة القوات المسلحة المصرية ليصحب الرئيس محمد أنور السادات الذي كان يجلس مرتديا ثيابا عسكرية ليعودا معا إلى المركز رقم (١٠) وفى عودتهما جاست عينا أحمد إسماعيل خلال الشوارع فى تأمل صوفى سرى بين جوانحه بينما كان الرئيس السادات يتحدث عن صحة الجميع وأحوالهم وانتقاله من منزله فى الجيزة إلى قصر الطاهرة .

* * *

فى تل أبيب كان يوم الغفران والشوارع خالية فى هذا اليوم الوحيد على مدار العام الذى يجتمع فيه اليهود ليصوموا أو يصلوا فى الكنيس وفى البيت، وأطبق السكون وتوقفت المحال عن أعمالها واختفت السيارات الخاصة والعامة من الشوارع ، ولا توجد صحف ولا تعمل الإذاعة وأغلقت كل المطاعم والمقاهى والمكاتب والمدارس .

كان ميخائيل أرفون سكرتير الحكومة الإسرائيلية يتابع بنفسه وصول الوزراء الذين أمكن الاتصال بهم هاتفيا .

أما بالنسبة للوزراء الآخرين الذين كانوا فى المعابد يصلون ويستغفرون من الخطايا التى ارتكبوها خلال العام أو يستمعون إلى الصلاة فإن العربات الخاصة كانت قد تحركت من المبنى فى الكرياه لجمعهم لحضور الاجتماع الذى دعت إليه رئيسه الوزراء بعد الظهر ، وفى الساعة الثانية عشرة كانت الوزارة الإسرائيلية قد اجتمعت بكامل هيئتها عدا ثلاثة من الوزراء أحدهم وهو وزير الخارجية كان خارج اسرائيل والآخران تعذر الاتصال بهما ، وكانت مكبرات الصوت المحمولة على عربات تجذب الشوارع للتعبئة العامة .

* * *

فى دمشق عاصمة الأمويين كانت الشوارع مقفرة إلا من عدد قليل من الناس يسيرون فى تراخ وفى هدوء فالوقت لا يزال مبكرا على الإفطار وفى المحال التجارية كان الزحام أكثر من غيره عند محلات الخضر ، وفى مركز قيادة القوات السورية كان الرئيس السورى حافظ الأسد قد عقد اجتماعا قصيرا مع اللواء مصطفى طلاس وزير الحربية السورى قبل أن يتخذ مكانه فى مركز القيادة وعلى يمينه جلس اللواء مصطفى طلاس وعن يساره جلس اللواء عواد باغ نائب وزير الدفاع وفى القيادة كان اللواء يوسف شكور رئيس الأركان واللواء عبد الرزاق الدرديرى رئيس هيئة العمليات واللواء ناجى جميل قائد القوات الجوية والدفاع الجوى واللواء جبرائيل بيطار رئيس الاستطلاع (٨) ، وعلى الخط البحرى الواصل بين دمشق والقاهرة كان اللواء بهى الدين نوفل فى القاهرة يتقبل إفادة شفرية

عن اتخاذ القادة السوريين أماكنهم فى غرفة العمليات استعداداً لأوامر العمليات الحربية .

* * *

كانت جولدا مائير قد فرغت للتو من المقابلة التى أجرتها مع كنيث كيتنج سفير الولايات المتحدة فى تل أبيب وبعد أن استمعت منه إلى ما قام بعمله ، أكدت له جولدا مائير أنها تدرك أنه صديق حميم لإسرائيل سواء فى مجلس الشيوخ الأمريكى أو فى إسرائيل نفسها ولقد شعرت بالعرفان له بالجميل فى هذا الصباح الرهيب لمساعدته وتفهمه (٣) .

خلال المقابلة سألها كيتنج

- هل أنتم مصمون على عدم إطلاق الطلقة الأولى ؟

فأبدت له جولدا مائير عزمها على ذلك فانبرى قائلاً :-

« لو أن اسرائيل امتنعت عن القيام بضربة وقائية وأوجدت بذلك الدليل القاطع على أن العرب هم الذين بدأوا بالقتال ، فإن أمريكا سوف تكون ملتزمه بالمساعدة » (٥) .

واستأذنت جولدا مائير في الانصراف لحضور اجتماع الحكومة الاسرائيلية الذى دعت إلى عقدة وهى تعيد على مسامعه أن اسرائيل لن تضرب الضربة الأولى ولكنها لاتزال تلح فى طلب التدخل الأمريكى القوى لمنع وقوع الحرب سواء أكان ذلك التدخل بصورة مباشرة أو غير مباشرة بصورة ديبلوماسية أو بغيرها ، ولم ينصرف السفير الأمريكي إلا

بعد أن اطمأن لقدرة إسرائيل على الرد القوى على الهجوم المتوقع .

❋ ❋ ❋

اختلطت أصوات نقاش حاد علا فيها صوت يسأل :

- هل حقا اتفقت مصر وسوريا على العدوان علينا فى وقت واحد؟

ضاع السؤال بلا إجابة بين الضجة العالية وهتف صوت آخر :

- إن عقلى لا يمكن له أن يقبل التفسير البسيط لهذه الأشياء بسهولة.

ساد الوجوم اجتماع مجلس الوزراء الاسرائيلى منذ بدايته وضربت الحيرة جذورها السوداء فى الأعماق الملتاعة لبعض الوزراء الذين استدعوا من أجازاتهم وسمعوا أنباء الهجوم المتوقع لأول مرة ، وجذب أحد الوزراء مقعدا ووجه حديثه إلى ديان فى غضب يقول :

- وأنت وزير دفاع له شأنه ، ألم تكن ترى قبل قيامنا بأجازتنا أن أى تفكير فى الحرب من جانب العرب إنما يعنى أنهم يستعيضون عن الموت بالموت حرقا .

أشاح ديان بوجهه متأففا وتساءل فى عجب :

- ومَنْ قال أننى غيرت رأيى أو سوف أغيره ، إننى من «الحفرة» انتقلت إلى اجتماع مجلس الوزراء لاتخاذ قرارات لاستدعاء الاحتياطى(٦) والضربة الوقائية (٣) .

صاح وزير آخر :

- هذا الزعيـرا وزبانيته ألم يكونـوا يصرون على أن الكم الـهائل من خيـوط الأسرار الـتى تصـب المعلـومات مـن خلال قنـوات الاستـطلاع والتـجسس فـى آلة جمـع المعلـومات تـنسج أن احـتمال قـيام المصـريين والسوريين مجتمعين بشن هجوم عـلى الجهتين فى وقت واحد هو أمر غير وارد ، وابتلع ريقه بعد أن أحس بحشرجة في صوته وأكمل صائحاً :

- ألم تكن تقاريره تقول أن مصر لم تستكـمل خطتها الهجومية بسبب النـقص الكـبير فى الأسـلحة الـتي تحتـاج اليها ، والـعلاقة بـين الاتحاد السوفيتى الذى يملك زمام العرب العـسكرى تمر بأزمة مع مصر ، وأسلحة الدفاع الجوى تعانى مـن خلل خطير بعد انتهاء خدمـة الخبراء السوفيت ، ووضع مصر الاقتصادى يصل إلى حافة الهاوية ، والحرب تعنى فى تقدير الخبراء العرب أنفسهم كارثة بلا حدود .

تدخل جالـيلى فى الحديث ، لـكن الأصوات لم تتوقـف وعلت حدة المناقشة حتى عندما دخلت جولدا مائير إلى قاعة الاجتماع ، وكان واضحاً أنها تريد إعطاء وصف كامل للموقف بما فى ذلك قرار تعبئة الأحتياطى(٣) ورأيها فى ذلك (التـجنيد على نطاق واسع ، وإن توجـب طلب المساعدة من الولايات المتحدة الأمريكية فإن علينا أن نعطيها الدليل الحاسم على أننا لم نسع إلى الحرب وهذا يـعنى أن علينا أن نستبعد العمـليات الوقائية وإن كان هذا الأمر يشكل عنصر ضعف فى العمليات العسكرية التالية (٦).

أما ديان فقد كان من رأيه :

- على كل حال فأنا مرتاح للانتقادات والمهم الآن هو عدم تضييع الوقت فإذا كان العرب ينوون شن هجوم فمن واجباتنا الملحة أن نستعد لرده فعلينا أن نعمل بحيث تكون كل طائرة وسيارة مصفحة فى مركزها ويكون كل جندى فى مركزه (٦) .

تطرق الحديث إلى المسائل المتعلقة بالدفاع المدنى واجلاء النساء والأطفال من الجولان وخطط اسرائيل الهجومية وأن هدف إسرائيل فى هذه المرحلة يجب أن يكون تدمير العدو لا احتلال الأراضي فحتى لو عمدت اسرائيل إلى احتلال بعضها فلن يمكن الاحتفاظ بها طويلا لأسباب سياسية (٦) .

أصر أحد الوزراء على مناقشة ضربة الإجهاض الوقائية وبات واضحا أن جولدا مائير ومجموعة وزراء المطبخ ديان وآلون وجاليلى لا يوافقون على القيام بضربة الإجهاض الوقائية بينما بدا باقى الوزراء مستعدين لمناقشتها والتدقيق فى احتمالات نجاحها واحتمالات ردود الفعل السياسية والعسكرية على المستويين المحلى والعالمى لها .

* * *

اتخذ الرئيس المصرى محمد أنور السادات مكانه على رأس هيئة القيادة بين الفريق أول أحمد إسماعيل على والفريق سعد الدين الشاذلى وإلى جوارهم كان اللواء محمد عبد الغنى الجمسى وضباط القيادة العامة .

تحفز الرئيس السادات مشدودا إلى الخرائط تأخذه الخطوط والرموز فوقها عبر المكان إلى الأعمال التى تجرى أمامه دقيقة إلى حد الإعجاز وتهز

المشاعر ، وتجره عبر الزمان فى لمحات تومض من أحداث جسام تمثل تاريخ أمه حتى هذا الوقت من الزمن ، وكأنه يرى رجالا يقبضون بأيديهم على دورة الأفلاك فى لحظة تجمع ماضى أمة بأسره ومستقبلها كله.

كان القادة المصريون قد تركوه فى لحظة التأمل حتى إذا انتهى منها أمسك بالأوراق يراجع تقارير إنجاز مختلف المهام على الجدول الزمنى والحروف تتشكل أمام عينيه تاريخا وعقله يرتب الكلمات فى سطور كتاب التاريخ وقلبه يلهج بتسابيح الحمد وتراتيل قدسية تتجمع فوق لسانه يتمتم بها فى ابتهال ضارع .

في لحظة تالية تجمد وجهه فغدا صخريا أسمر لامعا بلا انفعال وراح يتأمل الضباط والقادة والمعدات والجدران والخرائط عندما جذب انتباهه وجود حرج يراه وقلق أسبغه هول اللحظة فابتسم ضاحكا وقال :

- لماذا لا تدخنون وتشربون أقداح الشاى ؟ (١٤) وطلب لنفسه قدح شاى وأشعل غليونه وتلفت حوله ونادى اللواء عز الدين مختار المتحدث العسكرى قائلا :

- هل أخطرت الإذاعة ؟

توقف المتحدث العسكرى برهة وجيزة قبل أن يقول :

- لا يا افندم ، فلا يزال الوقت مبكرا ، أليس الهجوم فى الثالثة ؟

قال الرئيس السادات :

- الهجوم فى الساعة الثانية ، تفضل وأبلغ الإذاعة .

كانت الساعة تقترب من الواحدة والنصف عندما حمل اللواء عز الدين مختار بيان القيادة العامة الذى كان يحتوى على :

« قام العدو فى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا بمنطقة الزعفرانة والسخنة فى خليج السويس بواسطة عدة تشكيلات من قواته الجوية عندما كانت بعض زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربى للخليج وتقوم قواتنا حاليا بالتصدى للقوات المغيرة » (٩) .

وصدرت الأوامر برفع حالة استعداد الدفاع المدنى ووقف حركة الطيران المدنى والمرور البحرى .

❊ ❊ ❊

كان الرقيب فتحى الشناوى ميكانيكى إصلاح العربات يقود العربة النقل الكراز ٢٥٥ خارجا من موقع الفوج ٤٠ دفاع جوي وهو يجر خلف العربة أحد المدافع المضادة للطائرات من عيار ٥٧ ميللى بعد أن طلب منه قائد الموقع تجربة الجر فى العربة ، وعندما أعطي تمام إصلاح العربة ركب العربة الجيب العسكرية ليلقى مع المقدم أحمد بسام نظرة استشكاف على الساتر الترابى والموقع الذي سوف يتم عبور قوات الفوج منه . وقال المقدم بسام قبل أن تمنعهم الشرطة العكسرية من المرور :

- أنت أول واحد يجر المدفعية ويمشى من هذا الطريق ومن الأفضل لك أن تنزل إلى جوف القناة إذا لم تستطع المرور من هذا الجرف .

❊ ❊ ❊

فى النقطة الحصينة قبالة البلاح جهز آفى حمامه واستعد لغسل ثيابه وبدأ يغنى وفى غنائه لعنات على المصريين وقادته الذين اجتمعوا لكى تلغى

أجازته وتفسد بهجة عيد يوم الغفران .

توقفت أنشطة أوقات الفراغ العادية التى كان يمارسها الجنود المصريون واختفت فرق كرة القدم وصارت المنطقة الظاهرة لعيون المراقبين خالية من الجنود المستلقين على شاطىء القناة والجنود الذين يستحمون فى قناة السويس واختفى المراقبون من أبراج المراقبة على الشاطىء الغربى لقناة السويس .

اختفى الجنود الاسرائيليون من الابراج المقامة فوق النقاط القوية وطالت غيبتهم وبعد زمن طويل قدره ثلاث دقائق ظهر الأفراد الجدد الذى غيرتهم نوبة الحراسة ولاحظ بعضهم احتلال دبابات مصرية للمصاطب الهرمية المقامة على الضفة الغربية لقناة السويس ، كما لاحظ البعض إزالة الستائر والأغطية عن المدافع فى أكثر من موقع .

تحقق اتصال الجنرال جونين بموقع الفردان ليتأكد بنفسه من وصول جماعة من المهندسين العكسريين بقيادة الملازم أول شيمون تال إلى خط التحصينات الأماميه وقيامه بشرح طريقة تشغيل نظام الاشعال بالقاء قنبلة فسفورية بعد فتح خراطيم النابا لم السائل لتتحول مياه القناة إلى نار مشتعلة تكفى لمنع المصريين من عبور القناة ، وعندما تأكد جونين من انتهاء مهمة الضابط فى منطقة الفردان وأن الضابط وجماعته يقومون بإصلاح أحد الخراطيم المقطوعة فى حصن مستميد فى منطقة الدفرسوار انتقل جونين للاتصال بالجنرال مندلر لإبلاغه رساله هامة .

كان اللواء جمال على قائد سلاح المهندسين العسكريين فى القوات المسلحة المصرية بتابع تحضيرات عبور عناصر المهندسين العسكريين مع

المشاة لتأمين مرور المشاة فى حقول الألـغام فى الوقت الذى كان يتأكد فيه من استعـدادات عناصر تحديد محاور الـثغرات فى الساتر التـرابى وأماكن رسو القوارب التى تحمل المضخات وإعداد الأماكن اللازمة للترسية إضافة إلى استعدادات عبـور مجموعات تشعيل المضـخات لتنفيذ التخطـيط المبنى على تخصيص ستين معبرا على طول مواجهة قناة السويس وخصص لكل معبر فصيلة مـهندسين عسكريين مدعمة بخمسـة قوارب وخمسة مضخات مياه وآلة جر بحيث تتمكن الوحدات من إقامة إثنى عشر ممرا من قطاع كل فرقه من فرق المـشاة الخمس (١٣) ، إلا أن أهم ما كان يشـغل بال اللواء جمال على هو التأكد من تمام استعداد عنـاصر إقامة كبارى الاقتحام الثقيلة حمولة سبعين طنا .

❊ ❊ ❊

طلـقة واحدة انطـلقت من دبـابة مصريـة على الـضفة الغـربية لقـناة السويس أطلقهـا طاقم الدبابة فى اتجاه الضفة الشرقيـه فى الساعة الواحدة والدقيقه الثالثه والخمسين (٩) ، وكانت عملية التلقين قد اتسعت وشملت جميع الجنود الذيـن تلقوا الأوامر النهائية عن واجبـاتهم والأوامر الخاصة بالقتال وبعد أن تناولوا طعام الغداء تلقوا الأمر بالاستعداد وارتدى الجميع ملابس القـتال وتأكدوا من سلامة ذخـيرتهم وصدرت إليهـم الأوامر ببدء العمل ففتحوا القوارب بعد أن وصلوا إلى منطقة الفتح (٨) .

أصدر اللواء سعيد الماحى مدير المدفعية للقوات المسلحة المصرية أوامره إلى قادة مدفـعيات الجيش الثانـى والثالث الميدانيين بـبدء التمهيد الـنيرانى للعملية بدر (١٣) .

كانت الساعة الواحدة وخمسة وخمسين دقيقه عندما بدأت مجموعه استطلاع من اللواء ٣٠ مشاة بقيادة مساعد رئيس استطلاع اللواء تلقى بأنفسها فى مياه قناة السويس للعبور سباحة من معبر الكيلو متر ٢١(١٣).

* * *

فى القاهرة كان السفير السوفيتى فلا ديمير فينو جرادوف يسأل رئاسة الجمهورية الرد على رسالة الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون ، وكان الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية المصرى يطلب رئاسة الجمهورية لإبلاغها بموقف الرد على رسالة واشنطن التى كلفه بتبليغها الوزير الأمريكى هنرى كيسنجر إلى الرئيس السادات ، ولم يكن الرئيس أنور السادات فى ذلك الوقت، موجودا فى قصر الرئاسة (٢) فأحيلت المكالمتان إلى السيد حافظ إسماعيل مستشار رئيس الجمهورية لشئون الأمن القومى فى مكتبه بقصر الأمير عبد المنعم فى حى سراى القبة الذى اتخذه مقرا له ولمعاونيه لوقوعة بالقرب من قصر الطاهرة الذى تم تجهيزه للرئيس السادات ليصبح مقر قيادة له .

* * *

استعدت القوات الموجودة داخل حصون خط بارليف لامتصاص الضرب بناء على الأوامر التى أصدرها الجنرال مندلر فى الساعة الواحدة ظهراً ، وكان هذا يعنى إرسال الأفراد الذين ليسوا فى مهام قتالية إلى المؤخرة وارتداء الأفراد الأردية الواقية والخوذات الصلبة وإخلاء العتاد الزائد من الأراضى المكشوفة والاستعداد لتلقى القصف داخل الملاجىء ، وفى الوقت نفسه استعدت القوات المدرعة فى النسق الثانى وفى

الاحتياطى للتحرك فى الساعة الرابعة مساء لاحتلال مواقعها الأمامية للاشتراك فى صد الهجوم المصرى المنتظر وللقيام بالعمليات المضادة المحلية(١٣) .

استعدت قوات الميجور جنرال هو فى صد الهجوم فى القيادة الشمالية وكان ضباط نقاط مراقبة الأمم المتحدة على طول خط وقف إطلاق النار على اتصال بمقر قيادة الأمم المتحدة فى القدس عندما وصف أحدهم ما يجرى بقوله « لم يكن هناك فى الجانب السورى ما يبدو أنه هجوم بل أشبه باستعراض برى» فالطوابير السورية تستعد للتحرك على جبهة عريضة بثلاث أو أربع مركبات جنبا إلى جنب على كل من جانبى الطرق والدروب (١) .

من مقر قيادة الجنرال جونين فى بير السبع جرى اتصال سريع بين الجنرال جونين والجنرال مندلر فى مقر قيادة الأخير فى منطقة بير الجفجافه وصاح جونين فى الهاتف (١٣) .

- مندلر اسمع ينبغى تحريك الدبابات إلى الأمام الآن فإننى أعتقد أن من الأفضل أن تقوم بدفع قواتك المدرعة لملاقاة المصريين عند الشاطىء قبل حلول المساء وعدم الانتظار إلى الساعة الرابعة مساءً .

هتف مندلر :

- يبدو أن الوقت متأخر جداً لمثل هذه النصيحه إذ يخيل إلي أنهم يقصفون قواتى الآن .

هتف شعبان « واللـه العظيم قلبى قال لى » وأمسك آفى بثيابه المبتلة يعلقها فوق الأسلاك الشائكة عندما زمجرت طائرات فوق رأسيهما عابرة خط الأفق، وأراد آفى أن يعود إلى خندق القيادة سريعا عندما انصبت الحمم فوق الموقع فى قصف عنيف ، ارتمى أرضا ينظر إلى شىء ما ومد يده يستجمع قواه وبذل أقصى ما بوسعه ليتمكن من رؤية ما أمامه من خلال سحب الدخان والغبار وبدت فى كل الفضاء اشباح تتراقص وكأن آلة جهنمية تبعثره فى الأرض وأحس بجسده يتآكل وفجأة تحولت الأشياء إلى سواد عميق .

* * *

اعترض بنحاس سابير وزير الخزانة على ضربة الإجهاض لكن اعتراضه لم يفلح فى إقناع الموجودين بعدم الانصات إلى وصف ضربه الاجهاض الوقائيه ضد المصريين وبينما الكل ينصت فى اهتمام بالغ فى قاعة اجتماعات مجلس الوزراء الاسرائيلى انفتح باب القاعة فجأة واقتحم الغرفة العميد اسرائيل ليور السكرتير العسكرى لرئيسه الوزراء الذى هتف:

- طائرات العدو قامت بالهجوم على الجبهتين الشمالية والجنوبية .

وصك أسماعهم فى نفس اللحظة نعيق صفارات الانذار فى تل أبيب(٢).

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بقليل بعد أن دقت ساعة جامعة القاهرة آخر دقتين لآخر ساعات الهوان .